دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

التقليد
وأهميته في الإيمان المسيحي
كمدخل لشرح الأسفار وفهم الأسرار

الأب متى المسكين

التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي
كمدخل لشرح الأسفار وفهم الأسرار

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

التقليد

وأهميته في الإيمان المسيحي

كمدخل لشرح الأسفار وفهم الأسرار

الأب متى المسكين

التقليد

وأهميته في الإيمان المسيحي
كمدخل لشرح الأسفار وفهم الأسرار

كتاب: **التقليد: وأهميته في الإيمان المسيحي كمدخل لشرح الأسفار وفهم الأسرار**
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى: ١٩٧٨.
الطبعة الثانية: ١٩٨٥.
مطبعة دير القديس أنبا مقار — ص. ب. ٢٧٨٠ القاهرة.
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٨٤/٥٣٦٠
رقم الإيداع الدولي: ١ — ٠٢٠ — ٤٤٣ — ٩٩٧

محتويات الكتاب

مقدمة عامة

[وعلينا أن نعتبر هذا التقليد، الذي هو تعليم وإيمان الكنيسة الجامعة منذ البدء، الذي أعطاه الرب، وكرز به الرسل، وحفظه الآباء، والذي عليه تأسست الكنيسة وقامت]

القديس أثناسيوس الرسولي

الكنيسة القبطية كنيسة تقليدية رسولية نيقاوية بالدرجة الأولى. والتقليد فيها لا يتغير، باقٍ كما هو منذ تسلمته من المسيح على أيدي الرسل، وهو حي.

فالكنيسة، بالرغم من تصميمها الإيماني على أمانتها للماضي، فإن حاسة النمو والحياة تتفجر فيها باستمرار.

والتقليد في الكنيسة الأرثوذكسية ليس جزءاً من تعاليم الكنيسة أو صورة من صور حياتها، بل هو كل الكنيسة وكل حياتها. فهو يشمل إيمانها، وتفسيرها للكلمة، وفكرها، ولاهوتها، وروحياتها، وأسرارها، وطقوسها، وقديسيها، في وحدة كاملة لا تتجزأ! لذلك فالتقليد في الكنيسة الأرثوذكسية هو قوام شخصيتها الحية الذي يمدها بكل مميزات الحياة الإلهية.

ونحن نؤمن أن هذا بحد ذاته من عمل النعمة، إذ لم يكن ممكناً لأي قوة أو عزيمة أو نظام بشري أن ينجح في حفظ التقليد الكنسي حياً حتى اليوم، وبكل طابعه

الروحي ومميزاته الرسولية، بالرغم من الظروف الصعبة جداً التي عانتها الكنيسة بسبب الضغوط السياسية والإضطهادات الدينية وغزو العقائد الأخرى الآتية من الغرب مع بقية الطوائف التي حاولت تمزيق الكنيسة ونهب أولادها والتهكم على روحياتها ومسخ طقوسها وتقليدها، ولا تزال.

لذلك نقول إن التقليد الأرثوذكسي في الكنيسة القبطية هو من عمل النعمة، وقد أبقاه الله شهادة حية لصورة الكنيسة الأولى ذات الإيمان الرسولي كما فسره مجمع نيقية، دون أن تضيف عليه أو تختزل منه. فتقليدنا استمرار لحياة الكنيسة الأولى في أقدم صوره وتفسيراته، والفضل الأول في ذلك يرجع إلى أن الكنيسة لم تُجِزْ أي ثورات إصلاحية أو نهضوية من صنع أفراد أو جماعات، فاحتفظت بذلك على نظامها وتقليدها الرصين على مدى ألفين من الأعوام. فنموها وتجديدها ظلاً ينبعثان طبيعياً و بدون افتعال من جذورها الماسكة بكل قوة في صخر الدهور، تشرب من الينابيع العميقة غير المنظورة التي لن تنضب.

فما هو التقليد إذن؟ لقد حاول كثيرون من اللاهوتيين أن ينبهوا الأذهان إلى قيمته وإلى ضرورته وإلى حيويته حتى استنفذوا كل صفات التقليد، ولكن نحن في أشد الحاجة أن نعرف ما هو التقليد؟

هنا، وفي هذا الكتاب، سوف نقدم للقراء كل جوانب التقليد، ونبتدىء بمقدمة نقدم فيها ملامح التقليد بصورة مختصرة عامة.



أولاً : التقليد والإنجيل

●●●

إن التقليد الأرثوذكسي أول ما يشمل، يشمل الإنجيل وكل الأسفار المقدسة القانونية في العهدين. فالتقليد والإنجيل ليسا هما شيئين بل شيء واحد، وعامل الزمن الذي قدم الواحد عن الآخر لم يكن فاصلاً بينهما أبداً. فالبشارة الشفاهية والتعليم الشفاهي بالخلاص كان هو الإنجيل قبل أن يُكتب الإنجيل، فلما ابتدأ تدوين الإنجيل، اندسّت وسط أناجيله ورسائله أناجيل مزيفة ورسائل مزيفة كُتبت بعد انتقال الرسل. فلما أرادت الكنيسة فصل الحقيقي منها من الباطل (أي الرسولي من غير الرسولي) كان رائدها الوحيد هو التقليد، أي ما اختزنه الآباء الرسوليون من التعاليم والمقاييس الروحية التي تسلموها من الرسل أنفسهم.

+ فالإنجيل المكتوب هو الجزء المدوّن من التقليد.
+ أما التقليد كله فهو ما كُتب في الإنجيل وما احتفظته الكنيسة من التعاليم والفرائض.

فالكنيسة الأرثوذكسية هي « **كنيسة الإنجيل** » منذ البدء، بالمفهوم المتسع للإنجيل أي البشارة والتعليم الشفاهي المسلم من الرسل[1] جنباً إلى جنب مع الإنجيل المكتوب، تستمد منه حياتها اليومية كخبز الغد المعطى يوماً بيوم؛ تقرأه يومياً في كل صلاة من الصلوات السبع النهارية وفي منتصف الليل لتسمع به

---

(١) العلامة المميّزة للتقليد الكنسي الصحيح هي أن يكون منحدراً من الرسل أنفسهم.

صوت العريس إلى أن يأتي ؛ تقرأه يومياً في رفع بخور باكر وعشية بصلاة خاصة ؛ وتفسره وتعظ به ليعيش عليه و يعيش به كل من يسمعه. شعبنا انطبع على التقليد فصار إنجيلياً بروحه وسلوكه ؛ وفي القداس تقدمه الكنيسة كمائدة روحية دسمة لتهيِّيء به سر الجسد والدم.

قراءة الإنجيل وتفسيره يقدمها التقليد الأرثوذكسي على الصعيد الروحي و بروح الآباء واختباراتهم. والتقليد الأرثوذكسي لا ينزل بالتفسير إلى مستوى التحليل العقلي أو المنفعة الدنيوية بل يسمو به ليضبط به العقل والنفس والجسد والسلوك، ليسمو بالروح إلى فوق حيث المسيح جالس، لذلك فالإنجيل في الكنيسة الأرثوذكسية لا يمكن فصله عن الحياة اليومية التي يتسلمها الإبن عن أبيه وعن الكنيسة. لذلك فالإنجيل والتقليد هما شيء واحد، حق واحد، حياة واحدة منبعثة من مصدر واحد هو المسيح لغاية واحدة هي المسيح.

والإنجيل مع التقليد قوة عظيمة، أهم صفة من صفاتها أنها قوة مُجمِّعة، وقوة ضابطة للحرية الفردية وللشذوذ العقلي والفردي، قوة قادرة على جمع شمل القطيع الناطق والمسير به في مراعي روحية خصبة إلى أن يصل إلى الحظيرة السماوية على نفس الدرب الذي سار عليه الآباء والأجداد!

الإنجيل وحده ــ أي بدون التقليد ــ تنقصه هذه القوة الجامعة والضابطة والمرشدة للسير على درب واحد!! فالإنجيل يأخذ من الكنيسة أي من تعاليم الآباء وسيرتهم قوة خاصة وهيبة خاصة، فعندما يتلوه الأسقف أو الكاهن بسلطان المسيح و بروح الآباء تحل نعمة الإنجيل على الشعب كما من فم المسيح، وتربط الأبناء بالآباء.

كذلك فإن الإنجيل يأخذ نوراً خاصاً عندما يشرحه الأسقف أو الكاهن بالنعمة

الحالَّة فيه، في حدود العقيدة و بروح الآباء وفكرهم فيفهمه الشعب و يثق في صوته و يُقبل على تعاليمه ليعيشها كما عاشها الآباء واختبروها: «ألعلك تفهم ما أنت تقرأ؟ فقال كيف يمكنني إن لم يرشدني أحد؟» (أع٨: ٣٠و٣١)

فالإنجيل، لا ينكشف الحق الإلهي الذي فيه ولا تنبعث القوة الضابطة المحركة والمجددة والمرشدة التي فيه، إلا بواسطة آخر، أي بواسطة إنسان سبق وانكشف له الحق الإلهي وعاش مع قطيع الله ونال قوة وتجديداً وإرشاداً من آخر وهكذا؛ وهذا هو التقليد الأبوي كما يعبِّر القديس أغسطينوس: [أما من جهتي فأنا لا أؤمن بالإنجيل إلا كما يوجهه سلطان الكنيسة.]

وهكذا ظل تفسير الإنجيل في الكنيسة عملياً غير عقلي، حياً من جيل إلى جيل، وفي نفس الوقت بقي ملتزماً بالفكر الآبائي، والفكر الآبائي بدوره لم يخرج قط عن التقليد الرسولي الذي انحدر إلى الرسل من الصوت الإلهي الذي سمعوه سمع الأذن ثم بعد ذلك بواسطة الروح الواحد الذي كان يسقيهم!

والتقليد الرسولي في تفسير الإنجيل يتجه من حيث المنهج الروحي حسب ما قسم الله لكل واحد منهم من عطية وإلهام:

● **فالقديس يوحنا الرسول** أعطى تفسيره على أساس المحبة، والتحليق بالروح في السموات، وكشف الأخرويات: فـ«الله محبة» (١يو٤: ١٦)، و«هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد» (يو٣: ١٦)، و«**نحن نحبه لأنه هو أحبنا** أولاً» (١يو٤: ١٩)، و«إن كان الله قد **أحبنا** هكذا فينبغي لنا أيضاً **أن نحب** بعضنا بعضاً» (١يو٤: ١١)، و«**إن أحببنا** بعضنا بعضاً فالله يثبت فينا ومحبته قد تكملت فينا» (١يو٤: ١٢)، و«هذه هي **المحبة** أن نسلك بحسب وصاياه» (٢يو١: ٦)، و«من يثبت في **المحبة** يثبت في الله والله فيه» (١يو٤: ١٦)، و«بهذا

تكملت **المحبة** فينا أن يكون لنا ثقة في يوم الدين» (١يو٤: ١٧)، «لأن **المحبة** الكاملة تطرد الخوف» (١يو٤: ١٨)، و«من **يحب** الله **يحب** أخاه أيضاً» (١يو٤: ٢١)، و«من لا **يحب** لم يعرف الله» (١يو٤: ٨)، و«من **يحب** أخاه يثبت في النور وليس فيه عثرة» (١يو٢: ١٠)، و«إذا أُظهِر (المسيح) نكون مثله لأننا سنراه كما هو» (١يو٣: ٢)، و«الوصية الجديدة هي أن **تحبوا** بعضكم بعضاً.» (أنظر ١يو٢: ٨و١٠)

• **والقديس بولس الرسول** أعطى تفسيره على أساس **الإيمان الحار** المتدفق ورؤيا الخلاص في جهاد الحاضر، وملء الفرح في الألم: «وأما الآن فقد ظهر بر الله... **بالإيمان** بيسوع المسيح إلى كل وعلى كل الذين يؤمنون» «فأين الإفتخار؟ قد انتفى. وبأي ناموس؟ أبناموس الأعمال؟ كلا بل بناموس **الإيمان.**» (رو٣: ٢١و٢٢و٢٧)

«إذن نحسب أن الإنسان يتبرر **بالإيمان** بدون أعمال(٢) الناموس» (رو٣: ٢٨)، «لأن غاية الناموس هي المسيح للبر لكل من **يؤمن.**» (رو١٠: ٤)

«فإبراهيم نال المواعيد (ليس بسبب أعمال الناموس) بل لأنه تقوّى **بالإيمان** معطياً مجداً لله.» (رو٤: ١٣و٢٠)

«ونحن الآن جميعاً أبناء لله **بالإيمان** بالمسيح يسوع.» (غل٣: ٢٦)

«لأنكم بالنعمة مخلَّصون **بالإيمان** وذلك ليس منكم، هو عطية الله ليس من أعمال كيلا يفتخر أحد.» (أف٢: ٨و٩)

---

(٢) يلاحظ أن القديس بولس الرسول يقف ضد الإفتخار بأعمال الناموس القديم، ولكنه يطالب بأعمال المحبة والرحمة والحق.

«وإنجيل المسيح هو قوة الله للخلاص ... لأن فيه معلن بر الله **بالإيمان**» (رو١ : ٦و٧)

«فكل من **يؤمن** به لا يخزى» (رو٩ : ٣٣)، و«كل ما ليس من **الإيمان** فهو خطية.» (رو١٤ : ٢٣)

«لأن في المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئاً ولا الغرلة بل **الإيمان** العامل بالمحبة.» (غل٥ : ٦)

«فإذ قد تبررنا **بالإيمان** لنا سلام مع الله.» (رو٥ : ١)

لذلك أقول: «افرحوا في الرب كل حين وأقول أيضاً افرحوا» (في٤ : ٤)، «لأن خفة ضيقتنا الوقتية تنشىء لنا أكثر فأكثر ثقل مجدٍ أبدياً.» (٢ كو٤ : ١٧)

● **والقديس يعقوب الرسول** أعطى تفسيره على أساس التمسك بالأعمال وحدود النظام والرياسات:

«فالإيمان بدون **أعمال** ميت و يكون كالجسد بدون روح.» (يع٢ : ٢٠و٢٦)

«فما المنفعة يا إخوتي إن قال أحد إن له إيماناً ولكن ليس له **أعمال**، هل يقدر الإيمان أن يخلصه؟» (يع٢ : ١٤)

«أرني إيمانك بدون **أعمالك** وأنا أريك **بأعمالي** إيماني.» (يع٢ : ١٨)

«أنت تؤمن أن الله واحد؟؟؟ حسناً تفعل، والشياطين يؤمنون و يقشعرون.» (يع٢ : ١٩)

«ترون إذن أنه **بالأعمال** يتبرر الإنسان لا بالإيمان وحده!!!» (يع٢ : ٢٤)

حتى «الصبر فليكن له **عمل** تام لكي تكونوا تامين وكاملين غير ناقصين في شيء.» (يع١ : ٤)

وأيضاً: «إن كان أحد سامعاً للكلمة وليس **عاملاً**، فذاك يشبه رجلاً ناظراً

وجه خلقته في مرآة، فإنه نظر ذاته ومضى وللوقت نسي ما هو» (يع ١: ٢٣ و٢٤).
لذلك: «كونوا **عاملين** بالكلمة لا سامعين فقط خادعين نفوسكم.» (يع ١: ٢٢)
«ومن هو حكيم وعالم بينكم فليُرِ **أعماله** بالتصرف الحسن في وداعة الحكمة.» (يع ٣: ١٣)

● **والقديس بطرس الرسول** أعطى تفسيره على أساس **الرجاء** وسرعة انحلال الزمن الحاضر:

«فالله ولدنا ثانية حسب رحمته الكثيرة **لرجاء** حي بقيامة يسوع المسيح من الأموات.» (١بط ١: ٣)
«وأنتم بقوة الله محروسون بإيمان **لخلاص مستعد أن يُعلَن في الزمان الأخير.**» (١بط ١: ٥)
«فالْقوا **رجاءكم** بالتمام على النعمة التي يؤتى بها عند **استعلان يسوع المسيح.**» (١بط ١: ١٣)
«إن إيمانكم **ورجاءكم** هما في الله.» (١بط ١: ٢١)
«أيها الأحباء أطلب إليكم **كغرباء ونزلاء** أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التي تحارب النفس.» (١بط ٢: ١١)
«قدسوا الرب الإله في قلوبكم مستعدين دائماً لمجاوبة كل من يسألكم عن **سبب الرجاء** الذي فيكم.» (١بط ٣: ١٥)
«لا نعيش **الزمان الباقي** في الجسد لشهوات الناس بل لإرادة الله.» (١بط ٤: ٢)
«**نهاية كل شيء قد اقتربت** فتعقلوا واصحوا للصلوات.» (١بط ٤: ٧)
«و يوم الرب سيأتي كلص في الليل، الذي فيه تزول السموات بضجيج وتنحل العناصر محترقة وتحترق الأرض والمصنوعات التي فيها. فبما أن هذه كلها تنحل، أيّ

أناس يجب أن تكونوا أنتم في سيرة مقدسة وتقوى ؟ » (٢بط٣: ١٠و١١)
«لذلك أيها الأحباء إذ أنتم منتظرون هذه، اجتهدوا لتوجدوا عنده بلا دنس ولا عيب في سلام.» (٢بط٣: ١٤)

وبذلك تكون الأسفار قد شملت من حيث مضمونها الكلي هذه الإتجاهات العامة الأربعة في التفسير، دون أن يكون هناك أي تقسيم واضح بينها إذ بقيت ملامح كل اتجاه غائصة في الأعماق:

ـــ فالإنجيل حسب القديس يوحنا ينسجم مع فكر يوحنا الرسول نفسه الواضح في رسائله.

ـــ والإنجيل حسب القديس لوقا يتحد مع فكر بولس الرسول.

ـــ والإنجيل حسب القديس متى يتآلف مع فكر يعقوب الرسول.

ـــ والإنجيل حسب القديس مرقس يتمشى مع فكر بطرس الرسول.

لذلك نجد أن روح التفسير حسب التقليد الكنسي وحسب الآباء يتجه نحو أحد هذه الإتجاهات الأربعة:

١ ـــ إما **الإتجاه الروحي الخالص المتأسس على المحبة** والذي يحلق في سماء الروح والتأمل ويربط الحاضر دائماً بالأمور الآتية.

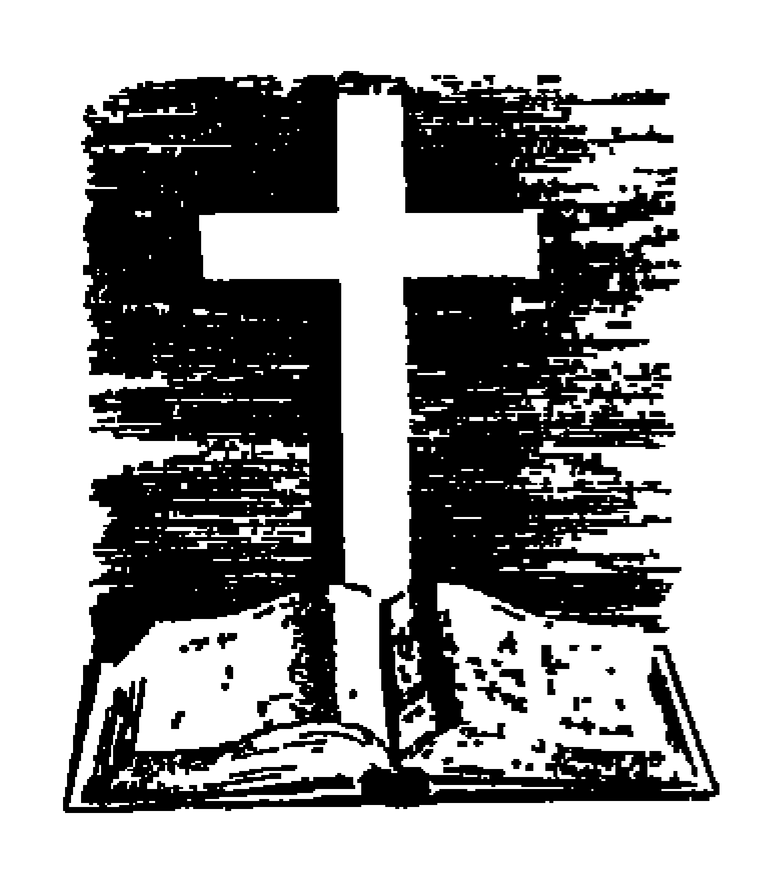
٢ ـــ وإما **الإتجاه الإيماني** الذي يقوم على الثقة الوطيدة بما أكمله المسيح من أجلنا مع ربط كل الحاضر بالخلاص الذي من أجله نعيش ونحيا.

٣ ـــ وإما **الإتجاه العملي** الذي يتمسك بطريق واحد للعبادة معتمداً على تكميل الفرائض وتطبيق وصايا الله في الحياة اليومية والتمسك بالأعمال إرضاءً للضمير وتثبيتاً للإيمان.

٤ ــ وإما الإتجاه بالحياة كلها نحو **الرجاء بالقيامة** والتطلع بثبات و يقين إلى النصيب المعدّ لنا في السموات، الذي على أساسه ينبغي أن لا نتمسك أو نتعوق أو نهتم بأمور الحاضر كبيرها وصغيرها لأنها تتغير كل يوم وستنحل في النهاية.

وعلى أساس هذه الإتجاهات الأربعة: المحبة، والإيمان، والأعمال، والرجاء تتجه الكنيسة نحو تفسيرها العملي للأسفار المقدسة. على أن هذه الإتجاهات لم تأخذها الكنيسة في تقليدها الحي كمجرد معارف أو تأملات أو ثقافة تفسيرية، بل أخذتها على صعيد تقديس الحياة وتكريسها كلها فكراً وروحاً وجسداً.

فنجد آباءنا الأوائل نهجوا في حياتهم إما ناحية **التصوف** أي التأمل الخالص القائم على الحب الإلهي، وإما ناحية **الكرازة**، الملتهبة بالإيمان، وإما ناحية **النسك المطقس بالأعمال**، وإما ناحية **الرجاء المعتمد على بساطة الحياة اليومية** والإكتفاء بالقليل. ولكل من هذه الإتجاهات آباء برعوا في العبادة و بلغوا الذروة في القداسة، بآيات عملية وشهادة الروح القدس، وتركوا سيرة حياتهم نموذجاً حياً رائعاً للتعاليم الرسولية المحيية، ومن الآباء من جمع بين كل هذه الإتجاهات معاً فكان شاهداً على وحدة العطايا والمواهب و بالتالي وحدة الإنجيل والأسفار. وسوف نعود إلى هذا الموضوع بالشرح والتفصيل الدقيق مع تقديم الأمثلة والشخصيات.



ثانياً: التقليد والمجامع

●●●

المجامع ليست سلطة تشريعية يمكنها سن قوانين إلهية جديدة ولكنها سلطة قانونية لتفسير وشرح القوانين التي سبق وشرحها الرسل. فالرسل هم السلطة الوحيدة التشريعية في الكنيسة، والتقليد الرسولي الذي وضعوه هو بمثابة الدستور الكامل؛ وأما دور المجامع فهو المفسر الرسمي الشرعي للتقليد.

منطوق قانون الإيمان الأرثوذكسي هو أصلاً من تعليم الرسل، وقد استلموه من المسيح رأساً كقانون، كما يذكره الكتاب باختصار: «عمِّدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس». ولكن الرسل بدأوا يشرحونه في الرسائل شرحاً يوضح علاقة الأقانيم وعملهم، فصار أول تعليم عن الإيمان. وكان الرسل، والأساقفة من بعدهم، يسلمونه تسليماً خاصاً شفوياً (وسرياً) أثناء العماد ليكون قانون حياة لكل إنسان مسيحي من بعد العماد و يكون نوراً له يهتدي به في قراءة الأسفار المقدسة.

هذا القانون ظلت الكنيسة تعمل به وتدافع عنه ضد المقاومين من جيل إلى جيل دون أن يفقد أصالته الأولى، إلى أن قامت هرطقة آريوس الذي استمال جزءاً كبيراً من الكنيسة بل ومن الأساقفة لتعاليمه مدّعياً أن المسيح مخلوق. كان هذا بمثابة هجوم سافر على قانون الإيمان الرسولي مما أزعج الكنيسة كلها، لأن تساوي الثالوث القائم على وحدة الجوهر هو تقليد الكنيسة الذي يعبِّر عن إيمانها بالله الواحد فهو ليس تقليدها الفكري بل حياتها!!

وعلى هذا انبرت الكنيسة في العالم كله لصدّ الهجوم وتثبيت قانون الإيمان وشرحه شرحاً وافياً تفصيلياً حسب التقليد الحي الذي تعيشه والذي تؤمن به، وذلك فيما يختص بنقطة الخلاف المطروحة وهي أزلية المسيح ووحدة الآب والإبن في الجوهر، وهكذا بدأ التقليد الرسولي من جهة الإيمان المسلَّم للكنيسة يتحرك في اتجاهين: **الإتجاه الأول** نحو التفسير، **والإتجاه الثاني** نحو التقنين مع الإحتفاظ التام بجوهر الإيمان الأصلي.

وبنفس الصورة ولنفس السبب التأم المجمعان الثاني والثالث، فدخلت المجامع المسكونية الثلاثة في صميم التقليد الكنسي كمعبِّر عن يقظة الكنيسة، وكبرهان لحيوية التقليد فيها، وكحارس على جوهر الإيمان. وكان عملها قوياً ساحقاً للأعداء. وانتهت المجامع بتقنين الإيمان الرسولي في صيغته الكاملة النيقاوية، مع تقديم تراث زاخر من الإصطلاحات والتفسيرات اللاهوتية التي أخصبت فكر الكنيسة ودعمت تقليدها الإيماني على ممر الدهور.



ثالثاً: التقليد وكتابات الآباء

●●●

من الأدلة الواضحة على حيوية التقليد في الكنيسة هذا التراث الزاخر من كتابات الآباء الذي يبتدىء بكتابات الآباء الرسوليين (١٠٠ـــ٢٠٠م) الذين خلفوا الرسل والتلاميذ مباشرة وتتلمذوا على أيديهم، أمثال اكليمندس وبوليكاربوس وأغناطيوس وبرنابا وبابياس ويوستين وإيرينيئوس. ويكتمل بكتابات الآباء الأساقفة العظام الذين سبقوا المجامع المسكونية والذين عاصروها ومن جاء بعدهم جيلاً بعد جيل. وقد كان الدافع للكتابة إما لتعليم الشعب وشرح الأسفار والإيمان، وإما للدفاع عن الإيمان لدى الأباطرة والحكام، وإما لمقاومة البدع والهرطقات وتثبيت الإيمان الأرثوذكسي.

وقد زخر التقليد الكنسي بمجموعات كبيرة من التفسيرات والشروحات والتعليم في كل ناحية من نواحيه.

والمعروف أن الآباء الكنسيين كانوا حَمَلة لشعلة الإيمان المسيحي المدعم بالأخلاق والسلوك والمعرفة العامة عبر العصور الأولى والوسطى كلها حتى بداية النهضة الحديثة في أوروبا، فكانوا رسل الثقافة والآداب والعلوم بالنسبة للمدنية الحديثة.

وحينما حمل الآباء الأوائل في القرن الثاني شعلة المعرفة والثقافة والفلسفة ضد فلاسفة الوثنيين وثقافاتهم وعلومهم، كان تفوُّق كتاباتهم ومنطقهم وتأثيرهم ساحقاً

بـالـنسبة للوثنية مما كان مثيراً للإعجاب والدهشة بالرغم من حداثة المسيحية وعتق الوثنية.

فـاكـلـيـمـنـدس الـرومـاني وسـمـيُّـه الإسـكـنـدري و يوستينوس وأثيناغوراس وأوريجانوس وترتوليان[٣] وكبر يانوس يمثلون جنود العاصفة الذين شقوا الطر يق في قلـب المدنية الوثنية، ليعبر من خلفهم جيوش المعلمين الروحيين الذين دكُّوا حصون الـوثـنـيـة ومعاقلها. ثم أثناسيوس وغر يغور يوس وذهبي الفم وأُغسطينوس وچيروم الذين خططوا ورسموا وأرسوا قواعد المدينة السماو ية المنيرة. هؤلاء لم يكونوا معلمين بـالمعنى الـشـائـع ولا «دكاترة» بالإصطلاح اللا تيني الركيك ولكنهم كانوا أنبياء ورسـل الـعـهد الجديد و بنائين مهرة في ملكوت الله، ولكن لا يزال البناء يحتاج إلى نمـو وارتـفـاع، والأساس كفيل أن يحمل الكثير! فالآباء وضعوا أساساً متعدد القوى والـصـفـات: فـبـوليكارب يمثل بساطة الأسقفية ورزانتها، وإغناطيوس يمثل التقوى الـكـنسية ووحدة الأسقفية والكنيسة والشعب واستعداد الشهادة، و يوستين الغيرة الـرسـولية، وإير ينيئوس رصانة التعليم والتقليد، واكليمندس الإسكندري الخصب الـفـكـري والإتجـاه الإجـتـمـاعي، وأوريجانس عبقر ية المعرفة وتعمق التأمل وعنف الـتـقـشـف، وكـبـر يـانـوس الـصـرامـة الـكـنسية، وترتوليان نشاط الفكر وصلابة الأخـلاق، و يـوسابيوس غزارة القراءة والبحث والتصنيف والتأر يخ، ولكتانتيوس الإبداع الأسلوبي، وأثناسيوس أصالة الإيمان الرسولي والإلهام الإنجيلي، و باسيليوس في الـلاهوت النُسكي، وغر يغور يوس النز ينزي في اللاهوت الفكري، والنيسي في الـلاهـوت الـتـصـوفي، وذهبي الـفـم في الـوعـظ الإنجيلي، وكيرلس الإسكندري في

---

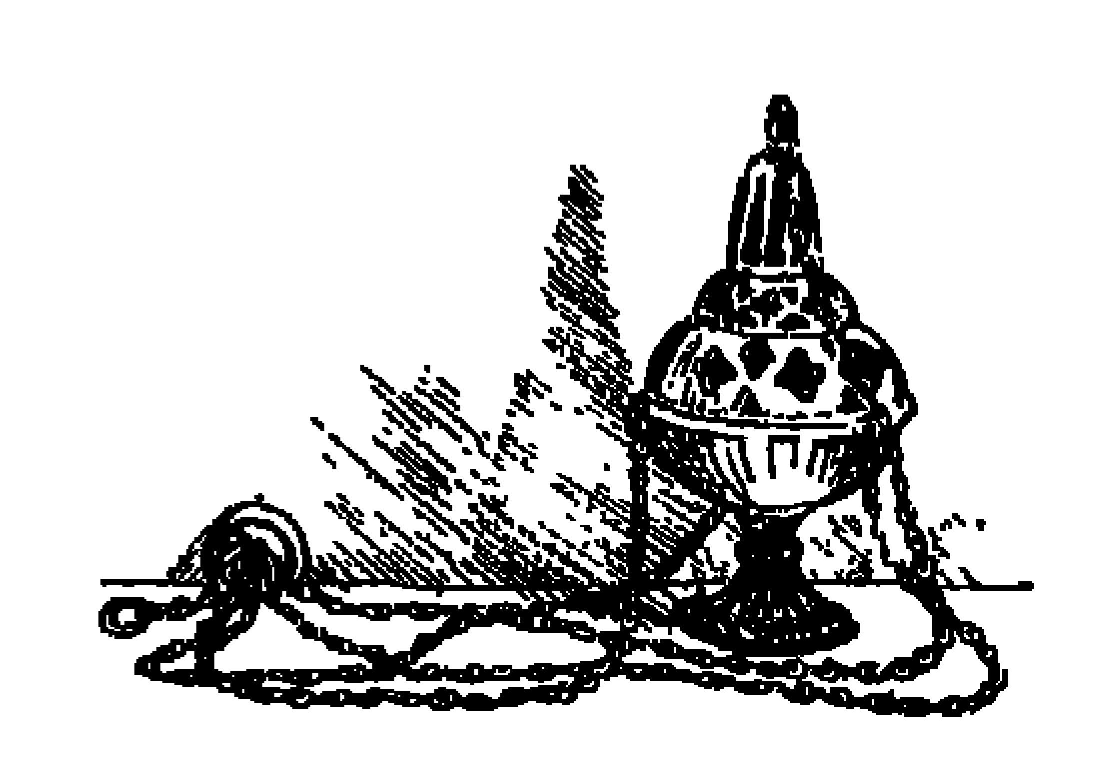
(٣) بـسـبـب عدم وجود قاعدة عقـائدية محددة قبل مجمع نيقية كانت بعض الكتابات لبعض الآباء تخرج عن الأصـالـة الـعـقـائـديـة كما عرفتها الكنيسة بعد المجامع، لذلك وُضعت بعض الأسماء لبعض الآباء تحت كلمة «كُتّاب كـنـسـيين» بـدل «قـديـسين» أو «مـعـلـمين» أو «آبـاء» بالمعنى الكنسي، ومنهم ترتوليان وأوريجانس و يوسابيوس القيصري ولكتانتيوس وثيئودور يت وغيرهم، بالرغم من تقدير الكنيسة لهم واتخاذ الكثير من تعاليمهم حُجة ومرجعاً.

اللاهوت العقائدي، قواعد لا تزال تطلب بنائين جدداً في كل جيل، وتقليد زاخر بمناهج الروح تفيض بالحياة لكل من يريد أن يحيا!!

أما الحاجة إلى تفسيرات الآباء فتبدو حتمية عند التعرف على رأي الكنيسة للإستزادة من الحق والتعمق في الروح أو عند احتدام النقاش حول النقط الإيمانية التي يثيرها الخارجون عن الإيمان أو التي تبدو غامضة في الأسفار المقدسة. لذلك فإن التقليد يعتبر ذخيرة التفسيرات الآبائية لازمة من لوازم قراءة الإنجيل وتفسيره، خصوصاً لدى المعنيين بتعليم الشعب وتهذيبه.

غير أن الإقتباسات من الآباء تحتاج إلى وعي سابق للروح الآبائية عموماً، فليس كل من يدخل في مجال الآباء يستطيع أن يفهم عمقهم أو يفسر تفسيراتهم، أو يغتني بأقوالهم وتعاليمهم؛ فالحاجة ماسة لدراسة الفكر الآبائي بصورة عامة أولاً وبصورة خاصة ثانياً. كما أن التقليد الأرثوذكسي لا يشجع إطلاقاً أي اقتباس للآباء يخالف في مظهره أو في جوهره روح الإنجيل أو أقواله.

على أنه يوجد آباء قديسون ينبغي أن تؤخذ أقوالهم حجة، كما أنه يوجد أيضاً آباء قديسون لا ينبغي أن تؤخذ أقوالهم حجة. والتقليد الكنسي يقدم آباءً على آباء وقديسين على قديسين، بقدر النور الذي كان عندهم وعلى أساس برهان الإنجيل الظاهر فيهم.



رابعاً: التقليد والأسرار

●●●

الإيمان الذي تسلم لنا من الرسل القديسين قبلناه على جزئين: جزء سماعي يقوم على الكلمة وله قوة تجديد الذهن والإرادة، وجزء عملي يقوم على إجراءات سرائرية وصلوات لها قوة تجديد النفس.

فالإيمان بالمسيح لا يشمل معرفة من هو المسيح فقط أو حفظ وصاياه فقط، بل يتحتم أيضاً أن نقبل المسيح في داخلنا، إذ يلزم أن يمتزج لحمنا وعظمنا بلحمه وعظامه، و يسري دمه في دمائنا. أن نعرف المسيح وأن نحفظ وصاياه هذا جزء الإيمان العلني المختص بالقراءة والفهم، هذا هو الإنجيل الذي ينبغي أن يكون ظاهراً لنا وللناس. ولكن أن نتحد بالمسيح شخصياً فهذا سرٌ. والسر لا يمكن أن يكون ظاهراً، فالمسيح بعد القيامة دخل العُلِّية والأبواب مغلقة، هذا هو بداية السر المسيحي. القيامة أعطتنا فرصة للإيمان بالمسيح بدون عيان، بدون حواس، بدون منطق. المسيح الآن يدخل إلينا و يدخل فينا سراً: «ليحلَّ المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧). هذا سر ولا يتم فعلاً إلا على مستوى السر وفي غيبة كاملة من الحواس.

ولكن المسيح لا يمكن أن يحل في قلوبنا إلا إذا صرنا روحيين أولاً، ولكي نصير روحانيين يلزم أن نولد من جديد: «لأن المولود من الجسد جسد هو والمولود من الروح هو روح» (يو٣: ٦). الروح القدس يضطلع بولادة الإنسان من جديد حتى يصير روحانياً فيقبل المسيح في قلبه و يتحد به. أن يولد الإنسان من جديد هذا سر

يتم داخلياً في غيبة كاملة من الحواس. سر الولادة الجديدة وسر حلول المسيح فينا أعطاهما المسيح لنا في العماد والإفخارستيا؛ وسلمها لتلاميذه بإجراءات وشروط وصلوات معينة لم يذكر الإنجيل شيئاً عملياً عنها. تسليم المسيح للأسرار هو جزء الإيمان التقليدي العملي، وفيه يتم السر الإلهي غير المحسوس لتطهير الإنسان وتجديده.

فالإيمان بدون أسرار ناقص ــ هذا أقل ما يمكن أن يُقال ــ والمسيح أوضح هذا الأمر: «من آمن واعتمد خلص» (مر١٦ : ١٦)، هنا الإيمان بدون عماد يوقف عمل الخلاص.

وعلى العموم، فإن كافة الأسرار تحوي في جوهرها مستويات روحية عميقة لا يمكن أن تُقاس بمظاهرها، أذخرها التقليد لنا من المسيح والرسل. وعلى حسب قول القديس باسيليوس الكبير: [توجد أمور استلمناها من الكتب المقدسة وتوجد أمور غيرها حصلنا عليها بالتسليم بواسطة الأسرار، وكلاهما له نفس القوة في الدين]. فالإيمان لا يُعرف فقط بكلام الفم أو بسَمَع الأذن بل بالصلاة نفسها والعبادة والممارسات الدينية التي يؤديها الإنسان، معلناً بها عن إيمانه وعقيدته. وتسميتها بالأسرار يشرحها لنا القديس يوحنا ذهبي الفم: [إنها تدعى أسراراً لأن ما نؤمن به ليس هو ما نراه لأننا نرى شيئاً ونؤمن بشيء آخر، وعندما أسمع كلمة «جسد المسيح» تُذكر أمامي، فإنني أفهم ما يُقال بمعنى خاص غير الذي يفهمه إنسان غير مؤمن بالمسيح.](٤)

أي إن إيماني بالحقيقة أصبح في صورة سرية. وهذا أخص خصائص الإيمان المسيحي، فالمسيح نفسه ظهر بهذه الطبيعة السرائرية عينها، فكان في ظاهره «إنساناً لا منظر له فنشتهيه» (راجع إش٥٣ : ٢)، أما في جوهره فكان الإله المالىء

(4) Hom. on 1 Cor. VII, 1.

السموات والأرض الحامل كل شيء بكلمة قدرته . وكان مفروضاً على التلاميذ أن يدركوا جوهره الإلهي بالرغم من مظهره المحتقر، وهذا الفرض لا يزال قائماً بالنسبة لنا في الأسرار.

كذلك فإن المسيح سلّمنا الأسرار كعمل حتمي لتكميل الخلاص: «من آمن واعتمد خلص» (مر١٦:١٦)، «إن لم تأكلوا جسد آبن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم» (يو٦:٥٣). هنا نجد أن الإيمان الذي يوصل إلى الحياة الأبدية ينقسم إلى قسمين: قسم يعتمد على الكلمة، وقسم يعتمد على سر التناول، ولا غنى للواحد عن الآخر، لذلك رفع التقليد قيمة الأسرار إلى نفس قيمة الإنجيل!

والله لم يشأ أن يكون عمله في الأسرار ظاهراً باهراً، له صورة المجد، بل حتم أن تجرى هذه الأسرار في إتضاع المادة حتى يرتفع إيماننا إلى نفس المستوى الذي آمن به التلاميذ بالمسيح الإله وهو في «صورة عبد» . فالتقليد يقدم لنا الإنجيل لنتقابل فيه جميعنا مع المسيح على مستوى إيماني واحد منظور. أما الأسرار فيقدمها التقليد لنتقابل فيها مع المسيح شخصياً وفي سر، كل واحد بمفرده، فكل واحد يأخذه على قدر إيمانه و يتحد به على قدر حبه . فالأسرار تفيد حضور المسيح: «ها أنا معكم كل الأيام إلى انقضاء الدهر» (متى٢٨: ٢٠)، إنما بصورة سرية .



خامساً: التقليد والكنيسة

●●●

الكنيسة في التقليد الأرثوذكسي كيان روحي بشري إلهي بآن واحد، فهي جسم المسيح السري؛ أُمٌّ سمائية على هيئة مدينة عظمى جميلة ومزينة كأورشليم، كلها من لحمه وعظامه. وهي في حال نموها وتماسكها كرمة حقيقية، المسيح أصلُها والأغصان تخرج منه وتظل ماسكة فيه، وتستمد حياتها من دمه. وهي ملكوت الله على الأرض لأن المسيح يحكمها و يدبرها بروحه الأزلي، لذلك أبواب الموت والجحيم لن تقوى عليها لأنها فُديت بدم الخروف، وغلبت بكلمة شهادتها، وكل أبرارها الآن يتهيأون للظهور مع المسيح في مجده العتيد أن يُعلَن في الساعة السرية التي في علم الآب. والذي يغلب الآن ينتقل فيها إلى صفوف المنتصرين الذين في السماء، فالكنيسة الآن خورسان الخورس الأعظم والأقوى فوق في السماء حيث الملائكة محسوبون مرتلين، و يكوّنون مع أرواح الأبرار والشهداء الجزء المسئول عن تقديم التوسلات والصلوات والمعونات لتكميل جهاد الآخرين. أما الخورس الآخر فهو على الأرض وهو خورس التائبين، فالكنيسة على الأرض كلها خورس تائبين!!

التقليد يضع أهمية عظمى على تسلسل وضع اليد لنوال الروح القدس المعطَى من المسيح، والمأخوذ من الرسل للأسقفية والقسوسية، ولإعطاء مواهب الرئاسة والتدبير والتعليم والحِلّ والربط لتقرير الحق والقطع باستقامة وحفظ الوديعة المقدسة التي هي قانون الإيمان وأسراره: [الكنيسة تأسست على الأساقفة «وأنا أقول لك أيضاً أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى

عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات» (متى١٦ : ١٨). هكذا يصف الرب كرامة الأسقف وخدام كنيسته.] القديس كبريانوس(٥)

فما يؤهل الرئاسات الكهنوتية أن تكون رسولية هو تكوينها السري ونوالها الروح القدس، لأن التسلسل الأسقفي الذي بوضع اليد أهّلها على مدى الأجيال لحفظ الوديعة الإيمانية وأسرارها بكل قوة وأمانة، والأساقفة بذلوا من أجل ذلك كل شيء حتى الدم. فبدونهم تفقد الكنيسة معناها وسرها.

والتقليد الأرثوذكسي يشدد على **وحدة الرئاسات الكنسية، وبالأخص الأساقفة، لضمان وحدة الكنيسة.** وهذا الإتجاه التقليدي تمسكت به الكنيسة غاية التمسك إزاء الإنقسامات ومقاومات الهراطقة، وقد أظهر ضرورة هذا التقليد كلٌّ من القديس أغناطيوس الأنطاكي والقديس كبريانوس بصورة مُلحّة للغاية:

[الأسقفيات كلها واحدة، إذا أقيم أسقف على جزء منها فكأنه أقيم على الكل، كأشعة الشمس فهي كثيرة ولكن النور واحد فإذا انفصل شعاع عن وحدته بالنور فهو لا يوجد لأن وحدة النور لا تسمح بالإنقسام] **القديس كبريانوس(٦)**

[الكنيسة لا توجد منقسمة ولا منفصلة ولكن مرتبطة ومتحدة بواسطة الأساقفة الذين يكوّنون معاً بإتحادهم الواحد مع الآخر جسماً متماسكاً للكنيسة.] **القديس كبريانوس(٧)**

أي إن الأسقف إذا فقد أُلفته بالأسقفيات الأخرى فهو لا يعود يمثل الكنيسة، وبالتالي لا يعود يمثل المسيح، لأن وحدة الكنيسة هي سرية وعلى مثال وحدة الثالوث حسب قول القديس إغناطيوس، ويكون مثل شعاع النور الذي إذا انفصل

---

(5) Cyprian, Ep. 26.1.

(6) St. Cyprian On the Unit of Ch. 5 (كتبت سنة ٢٥١م)

(7) Cyprian, Ep. 68, 8.

عن مصدره تلاشى من تلقاء ذاته حسب قول القديس كپريانوس. (٨)

كذلك فالتقليد يشدد على وحدة الأسقف بالكنيسة، أي بالشعب، لأن الأسقف هو أسقف في الكنيسة و بالكنيسة ومن الكنيسة ولكن ليس عليها، فوحدة الأسقف بالشعب هي مثال وحدة المسيح بالكنيسة ووحدة الرأس بالجسد. والأسقف في التقليد متزوجٌ الكنيسة. الكنيسة هي الشعب متحداً بالأسقف، رعية ملتفة حول الراعي [فالأسقف يوجد في الكنيسة، والكنيسة توجد في الأسقف] **القديس كپريانوس**(٩)

لذلك، فالكنيسة كشعب حينما تكون متحدة بأسقفها والأسقف متحداً بالأساقفة، تكون الكنيسة هي مثال المسيح على الأرض، وهذا هو الحال عند لحظة إقامة الإفخارستيا: [أينما يكون المسيح تكون الكنيسة الجامعة] **القديس إغناطيوس**(١٠)

والكنيسة بالرغم من تعددها في جميع أنحاء العالم فهي واحدة، والأسقفيات بالرغم من توزعها على جميع الكنائس فهي واحدة: [و بالرغم من أنه توجد كنيسة واحدة فقد قسمها المسيح على العالم كله إلى أعضاء كثيرة، كذلك فبالرغم من وجود أسقفية واحدة هي موزعة بكثرة منسجمة على أساقفة كثيرين.] **القديس كپريانوس**(١١)

ولا يمكن أن تفهم الكنيسة بدون أسرار ولا الأسرار بدون الكنيسة. فالدخول إلى الكنيسة للإتحاد بجسدها يكون من داخل المعمودية ومن تحت يد الأسقف،

(8) St. Ignat., Ep. 17, St. Cyprian, Ep. 75, 5.
(9) St. Cyprian, Ep. 68.8.
(10) St. Ignat., To Smyrn. 8.2.
(11) St. Cyprian, Ep. 60.24.

لذلك نجد أن غريغوريوس الكبير بابا روما يرفض لقب «**أسقف مسكوني**» معتبراً أن هذا مقهوم غير مسيحي.

ودوام الإتحاد بها يكون بالإفخارستيا في سر لا يُنطق به. أي إننا في سرّي المعمودية والإفخارستيا ننال الموت والقيامة مع المسيح:

[حيثما وُجدت الكنيسة فهناك روح الله وحيث روح الله فهناك الكنيسة وكل عمل النعمة. والذين لا يشتركون في الروح القدس لا يغتذون للحياة من ثدي أمهم ولا يرتوون من النبع الفائض المنبثق من جسد المسيح] **القديس إيرينيئوس**(١٢)

والإتحاد بالكنيسة يعني الحياة فيها. والحياة نمو، وهذا يكون بالتعليم المستمر وبالخضوع لسلطان التأديب وقوانين التوبة لإزالة العثرات من طريق النمو: فالمسيحية تلمذة، والكنيسة تضطلع بدور المعلم والطبيب. وكتاب قوانين الرسل يمثل منهج التعليم والتأديب والتوبة والشفاء في الكنيسة منذ البدء.

وحينما يوفي الإنسان كل واجبات العضوية المنظورة في الكنيسة المنظورة يأخذ حق العضوية غير المنظورة في الكنيسة غير المنظورة(١٣) «كنيسة القديسين» (١كو١٤: ٣٣) كما يراها بولس الرسول، أو «كنيسة المختارين» (كو٣: ١٢)، «المعروفين لدى الله فقط» (١كو٨: ٣) القائمين في الكنيسة المنظورة وغير منفصلين عنها. ولا يستطيع أحد أياً كان أن يفصلهم عنها حسب قول القديس أغسطينوس. (١٤)

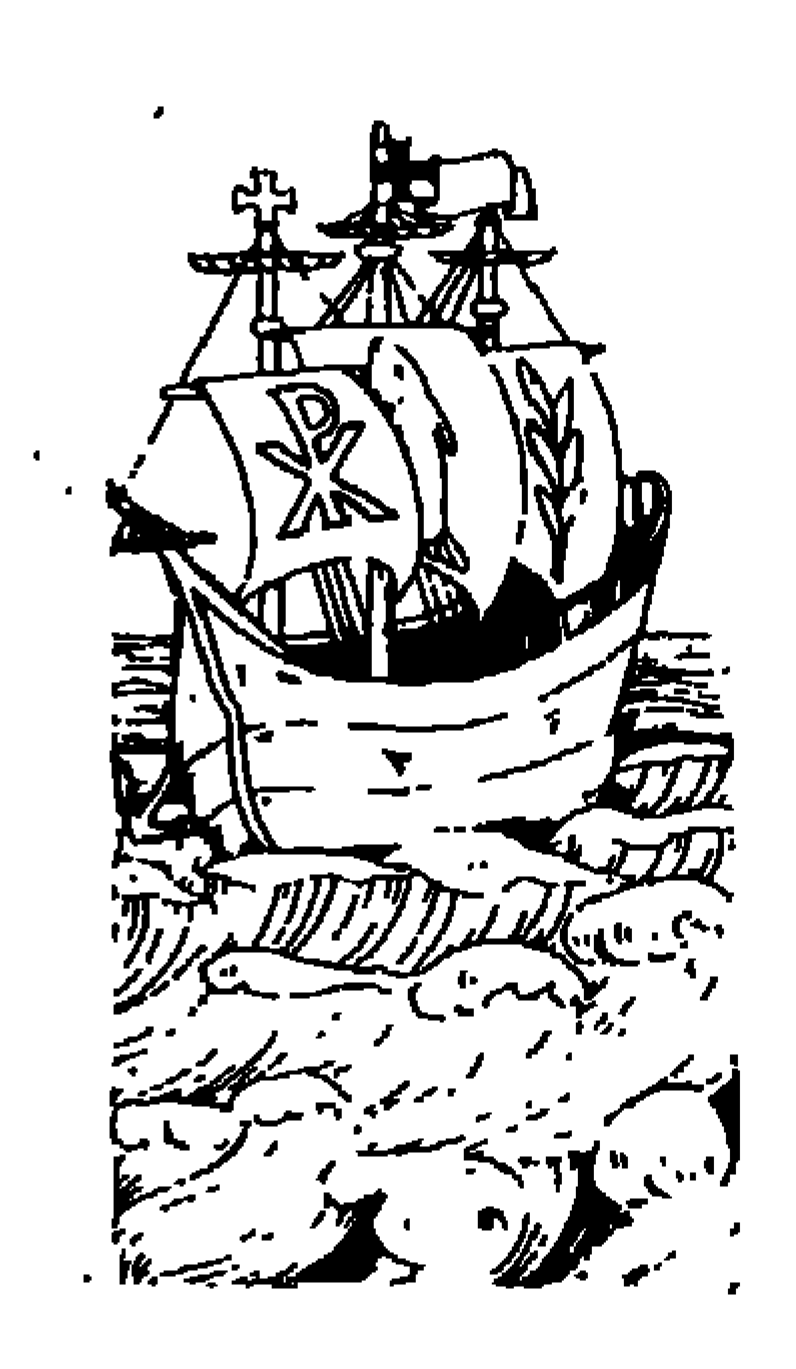
---

(12) Iren., Adv. Haer. III, 24, 1.

(١٣) العلاقة بين الكنيسة المنظورة وغير المنظورة شديدة ولكنها غير محسوسة. وحسب فكر القديس إغناطيوس فإن الكنيسة تمثل التجسد فهي من روح وجسد متحدين. فالذي يتحد بها ظاهراً يتحد بها سراً، والذي يواظب على عضويتها الجسدية ينال عضويتها الروحية. (رسائل أفسس ١٠، وماغنيزيا ١٣، وسميرنا ١٢)

(١٤) مجمل ما جاء في كتابه عن مدينة الله وعن الوحدة الكنسية (٢: ٢). وحسب فكر أغسطينوس أيضاً، فإن الكنيسة في الحاضر تحوي الصالح والشرير، وسريان الأسرار والنعمة فيها لا يعتمد على استحقاق الذين يخدمونها لأنها نعمة الله وليست نعمة الإنسان؛ وإن الكنيسة الآن هي مثال الملكوت على الأرض فهي كالحقل الذي يحوي الحنطة والزوان وكالشبكة التي فيها سمك رديء وسمك طيب.

والكنيسة، حسب التقليد، واحدة مقدسة جامعة[١٥] رسولية: واحدة بجسد المسيح، مقدسة بالروح القدس الكائن في الرئاسات والأسرار، جامعة بواسطة الشعب المتحد بالإيمان والمحبة والحق في كل مكان، رسولية بالتقليد المسلَّم من الرسل والمحفوظ فيها على الدوام.



(١٥) جامعة أي «كاثوليكي». وأول من استخدم هذه الصفة للكنيسة هو القديس إغناطيوس الأنطاكي في رسالته إلى أهل سميرنا (أزمير) ٨: ١٩: «أينما وُجد المسيح وُجدت الكنيسة الجامعة» (أي العامة). والمعنى اللاهوتي الدقيق لصفة «الجامعة» بالنسبة للكنيسة ينصبُّ، حسب فكر إغناطيوس، على صدق وأصالة التعليم العام حسب ملء الحق Consensus Fidelium وذلك ضد شذوذ الأفراد والمراطقة.

الفصل الأول

التقليد في العصور الأولى للكنيسة

١ ـــ أسبقية التقليد الشفاهي على الأسفار المقدسة

□□□

إن أسفار الكتاب المقدس لم تكن هي الطريق الوحيد الذي عبرت فيه البشارة، فقد انتقل الوحي المقدس وانتشر في الكنيسة المبتدئة بحرية غير مقيدة بالكتابة، بصورة خبر سار ينتقل من فم لفم، ثم بصورة تعليم شفاهي قائم على سلطان التسليم تحت التدقيق البشري وعناية الروح القدس: «وانتخبا لهم قسوساً في كل كنيسة، ثم صلّيا بأصوام واستودعاهم للرب الذي كانوا قد آمنوا به» (أع ١٤: ٢٣). «فإن هؤلاء المعتبرين لم **يشيروا عليَّ بشيء** بل بالعكس إذ رأوا أني أُؤتُمنتُ على إنجيل الغرلة كما بطرس على إنجيل الختان، فإن الذي عمل في بطرس لرسالة الختان عمل فيَّ أيضاً للأمم، **فإذ علم بالنعمة المعطاة لي** يعقوب وصفا ويوحنا المعتبرون أنهم أعمدة أعطوني وبرنابا يمين الشركة.» (غل ٢: ٦ــ٩)

وهو لا يذكر هنا أي شيء بخصوص تسليم أوراق أو قوانين مكتوبة أو أية إرشادات، بل كان كل اعتماد البشارة على **نعمة الله المعطاة للمؤتمنين على الكرازة.**

فرسالة المسيح لم تبدأ رحلتها عبر القلوب عن طريق الرسائل المكتوبة وإنما عن طريق الخبر «لأن الإيمان بالخبر والخبر بالكلمة.» (رو١٠: ١٧)

و بطرس و يوحنا يقرران في سفر الأعمال أن كل وديعتهم الإيمانية التي تسلموها من المسيح كانت بالنظر والسمع فقط «لأننا لا يمكننا أن لا نتكلم بما رأينا وسمعنا.» (أع ٤: ٢٠)

كما أن تعليم الممارسات العبادية ظلت لا تُسلَّم إلا شفوياً بالتوضيح العملي فقط بدون كتابة، في الوقت الذي بدأت فيه أصول الإيمان تُكتب في الرسائل: «وأما الأمور الباقية فعندما أجيء أرتبها» (١كو١١: ٣٤)، وكلمة «أُرتبها» جاءت في الأصل بمعنى أُطقِّسها διατάξομαι. والقديس يوحنا الرسول أيضاً يقرر أن الكتابة ليست لكل شيء «إذ كان لي كثير لأكتب إليكم لم أُرد أن يكون بورقٍ وحبرٍ لأني أرجو أن آتي إليكم وأتكلم فماً لفمٍ.» (٢يو١٢)

وكذلك القديس بولس الرسول يعتمد بالأكثر في كرازته على التعليم الشفوي: «فاثبتوا إذاً أيها الإخوة وتمسكوا **بالتقليد الذي تعلمتموه** سواءٌ كان **بالكلام أم برسالتنا**» (٢تس٢: ١٥). وهنا يقف التقليد بنوعيه معاً جنباً إلى جنب: التقليد الشفاهي أولاً، ثم التقليد الكتابي. ونجد القديس بولس الرسول يضغط بشدة على ضرورة الإهتمام بحفظ التعاليم الشفوية التي كان يكرز بها، والتدقيق الكثير في تسليمها لأشخاص أمناء «تمسك بصورة الكلام الصحيح الذي سمعته مني في الإيمان والمحبة التي في المسيح يسوع ... وما سمعته مني بشهود كثيرين أودعه أناساً أمناء يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضاً.» (٢تي١: ١٣و٢: ٢)

ومعروف أن الرب نفسه لم يستطع أن يلقن تلاميذه كل شيء عن الإيمان والحق والأمور المختصة بملكوت الله أثناء كرازته، بسبب بطء إيمان التلاميذ هذا

الـذي و بـخـهم عليه الرب حتى بعد القيامة: «أخيراً ظهر للأحد عشر وهم متكئون وو بخ عـدم إيمـانهـم وقـساوة قـلـوبهـم لأنهـم لم يـصـدقـوا الـذيـن نظروه قد قام.» (مر١٦: ١٤)

كـذلـك نـسـمـعـه يـقـول لهـم: «إن لي أمـوراً كثيرة أيضاً لأقول لكم ولكن لا تـسـتـطيعون أن تحتملوا الآن. وأما متى جاء ذاك، روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق» (يـو١٦: ١٢و١٣). وبهـذا يـفـتـتح الرب أمام التلاميذ والكنيسة كلها باب المـعـرفـة والإلهـام لـتقبُّل تعاليمه عن الحق والإيمان والحياة الأبدية إلى مالانهاية بدون توقف عبر الدهور.

و يـقـيـنـاً إن الـرب ظـل على اتـصـال روحـي بهم بعد القيامة، وظل يمدهم بقوة الـروح الـقـدس و يـز يـد من استعلانهم للحق و يقوّي من بصيرتهم وفهمهم ليدركوا كـل الحـق حـسـب وعـده، وفعلاً بدأ الرسل بعد حلول الروح القدس بقدرة جديدة فائقة على إمكانياتهم الأولى وأخذوا يعلّمون كمن لهم سلطان، أي بالروح القدس.

كما اسـتـمـر الـقـديـس بـولـس الـرسـول يتلقن من فم الرب نفسه تعاليم كثيرة وتـوضـيـحـات وتـوجيهات ومشورات وشروحات وتفاسير يدهش لها الإنسان: «إله آبـائـنـا انتخبك لتعلم مشيئته **وتبصر البار، وتسمع صوتاً من فمه.** لأنك ستكون له شـاهداً لجميع الناس بما رأيت وسمعت» (أع ٢٢: ١٤و١٥). ونفس بولس الرسول يـقـرر و يـشـهـد بـذلك: «لأني تسلمت من الرب ما سلّمتكم» (١ كو١١: ٢٣). «ألستُ أنا رسولاً. ألستُ أنا حراً. أما رأيتُ يسوع المسيح ربنا.» (١ كو٩: ١)

وواضـح مـن هـذه الآيـات أن الـتـلامـيـذ ظلوا يتلقنون من الرب نفسه، بإلهام الروح القدس، أموراً كثيرة جداً عن الإيمان وعن الممارسات التي للعبادة وعن شرح الأمـور المتعلقة بالإنجيل وبملكوت الله حتى بعد كتابة الأناجيل كلها والرسائل، كما

أن ما كتبه التلاميذ والرسل لم يكن سوى **الحقائق المبدئية** للإيمان بأن يسوع هو المسيح وأن ليس خلاص ولا حياة أبدية إلا بالإيمان به: «وآيات أخر كثيرة صنعها يسوع قدام تلاميذه لم تُكتب في هذا الكتاب» (يو٢٠: ٣٠). علماً بأن القديس يوحنا الرسول سجل هذه الكلمات في نهاية إنجيله الذي كتبه في نهاية القرن الأول سنة ٩٥م.

كما كتب أيضاً شارحاً أساس إنجيله الذي كتبه: «وأشياء أُخر كثيرة صنعها يسوع إن كتبت واحدة فواحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة.» (يو٢١: ٢٥)

والسؤال: أين نجد هذه الأشياء إلا في التقليد المسلَّم شفاهياً الذي يتسع فيه المجال لسرد آلاف الحوادث والتعاليم والمشورات. ومعلوم أن القديس يوحنا عاش بعد قيامة المسيح ليس أقل من سبعين سنة يقص ويحكي كلام الحياة الأبدية.

٢ ـــ انتقال الوحي بالكتابة و بالشفاه عبر الزمان

□□□

إذن، لم يقتصر تعليم الرسل منذ البدء وحتى النهاية على تسليم الحقائق المدونة في الإنجيل والرسائل، إنما ظل أيضاً يعتمد باستمرار على أساسه الأول الذي ابتدأ به وهو «ما رأوه وما سمعوه». وهذا ما يُعرف في اللاهوت الأرثوذكسي «بالتقليد الشفاهي» المعتبر من حيث الزمان سابقاً على الأسفار المقدسة المكتوبة جميعها، والذي تشكلت منه ضمناً كل محتويات العهد الجديد كما يؤكده القديس إيرينيئوس: [لأننا قد تعلمنا طريق الخلاص على يد نفس الذين سلمونا الإنجيل،

لأنهم كرزوا به أولاً في الخارج، وأخيراً كتبوه حسب مشيئة الله وسلموه إلينا مكتوباً ليبقى أساساً للإيمان وعموداً له .](1)

ولكن التلقين الشفاهي للتقليد فيما يختص بأسرار الإيمان منذ العصر الرسولي كان يُعتبر ذا صبغة سرية لِمَا كان يحويه من تفاصيل وممارسات طقسية في العبادة ومبادىء روحية خاصة لم تكن تُسلَّم للمؤمنين إلا بتدقيق شديد بعد التأكد من استحقاقهم .

فبينما نقرأ في الرسائل المكتوبة : «أناشدكم بالرب أن تُقرأ هذه الرسالة على جميع الإخوة القديسين» (١تس ٥ : ٢٧)، وأيضاً : «ومتى قُرئت عندكم هذه الرسالة فاجعلوها تُقرأ أيضاً في كنيسة اللاودكيين ، والتي من لاودكية تقرأونها أنتم أيضاً» (كو٤ : ١٦)؛ نجد أن القديس بولس ينتحي ناحية التدقيق الشديد والإختيار في توصيل التقليد الشفاهي : «**ما سمعته مني بشهود كثيرين أودعه أناساً أمناء يكونون أكفاءً أن يعلّموا آخرين أيضاً .**» (٢تي ٢ : ٢)

ولذلك ، فقد كان التقليد الشفاهي منذ العصر الرسولي يتمتع بسرية واهتمام وفحص أوفر من التقليد الكتابي الذي في الأناجيل والأسفار: [وكلما أتى أحد ممن كان يتبع المشايخ (الرسل) سألته عن أقوالهم ، عما قاله أندراوس أو بطرس ، عما قاله فيلبس أو توما أو يعقوب أو يوحنا أو متى أو أي واحد آخر من تلاميذ الرب أو عما قاله أريستون أو القس يوحنا (غير يوحنا الإنجيلي) لأنني لا أعتقد أن ما أتحصل عليه من الكتب يفيدني بقدر ما يصل إليَّ من الصوت الحي ، ذلك الصوت الحي الدائم .] **بابياس**(2)

(1) Iren., Trad. of the Gospels, E. Ch. F., p. 370.

(2) Euseb., E. H., 3,39,4.

وهذا الأمر واضح أيضاً في مقدمة إنجيل لوقا : [إذ أخذ كثيرون في تأليف قصة في الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا من البدء معاينين وخداماً للكلمة ، رأيت أنا أيضاً إذ قد تتبعت كل شيء من الأول بتدقيق أن أكتب...]

ومن هذا يتبين بغاية الوضوح أن التقليد الشفاهي المسلَّم بتدقيق و يقين هو المصدر الذي اعتمد عليه القديس لوقا البشير، بالإضافة إلى روح الإلهام الذي كان يُبرز له الحقائق لمجد الله . كما يظهر أيضاً مقدار اليقين والثبات والتدقيق الذي كان يتمتع به تسليم التقليد الشفاهي الذي بدأ من فم الذين عاينوا المسيح .

ولكن في الحقيقة لا يمكن أن نفصل بين التقليد الشفاهي في ذلك الزمان والتقليد الذي تسجَّل كتابة ، أي الإنجيل ، فكلاهما حق ، ومصدرهما واحد هو المسيح ؛ وكلاهما أضاء على الكنيسة بنور الإيمان بنفس القوة واليقين .

أما من حيث تقدُّم الواحد على الآخر تاريخياً ، فلا يصح أن يكون هذا سبباً لفصلهما كمصدر ين للحق أو تقسيمهما كواحد أهم وآخر أقل لأن ذلك يمس المصدر الإلهي الذي انحدرا منه . فهما بوزن واحد من جهة العمل على حسب قول القديس باسيليوس: [متساو يان في القيمة والقوة والصلاحية](٣)؛ أو كما يقول إكليمندس الإسكندري: [فالذي يزدري بالتقليد الكنسي لا يعود يُحسب من أولاد الله](٤)؛ وكما يؤكد أوريجانس: [لا يُعتبر أي أمر أنه حق إلا إذا كان لا يتناقض قط مع التقليد الكنسي الرسولي.](٥)

وكذلك أيضاً نجد أن أسفار العهد الجديد بما فيها الرسائل لم تستوعب كل

(3) Holy Spirit XXVII, 66.

(4) Clement, Strom. VII, 16.

(5) Origen, De princip. proem. 1.

«التقليد الشفاهي» كما هو واضح من الآيات الكثيرة السابقة، لأن ممارسة الحياة المسيحية احتاجت ــ وخصوصاً بالنسبة للوثنيين الذين لم يكونوا يدركون شيئاً البتة عن الله أو العبادة بالروح والحق ــ إلى تفسيرات وأحكام وفرائض لتناسب الظروف البدائية والمتعددة للمؤمنين، وهذه كان يتعذر كتابتها في رسائل مما اضطر إلى تلقينها لتكون تقليداً شفاهياً قانونياً يُعمل به بنفس القوة والسلطان الذي كان في الأسفار المكتوبة: [**وإذ كانوا يجتازون في المدن كانوا «يسلّمونهم»** القضايا δόγμα التي حكم بها الرسل والمشايخ الذين في أورشليم «ليحفظوها» فكانت الكنائس تتشدد في الإيمان وتزداد في العدد] (أع ١٦: ٤). و يلاحظ هنا كلمة «**يسلّمونهم**» παρεδίδουν في الأصل اليوناني وهي مشتقة من كلمة **تقليد** παράδοσις . أما كلمة «قضايا» فهي في الأصل اليوناني Δόγμα أي «فرائض عقائدية»، وتختص غالباً بالممارسات العملية حسب معنى الكلمة القديم (حسب تفسير القديس باسيليوس). والمعنى بذلك يمكن توضيحه هكذا: «**وكانوا يسلمونهم فروض العقيدة حسب أصول التقليد**».

وفي الآية السابقة يسترعي اهتمامنا ثلاثة أفعال كانت تختص بممارسة تسليم التقليد الشفاهي:

الأول: «حَكَم» بها الرسل والمشايخ الذين في أورشليم.

الثاني: «يُسلّمونهم»،

الثالث: «ليحفظوها».

الفعل الأول يصوِّر لنا أول مجمع قانوني في الكنيسة لفرض الفرائض التقليدية اللازمة للعبادة، حيث نجد الحكم يصدر لا من الرسل المجتمعين جميعاً في أورشليم وحدهم بل والمشايخ الذين يمثلون الشعب تمثيلاً علمانياً. وهنا أول وأوضح صورة لمعنى الكنيسة وسلطانها وعصمتها.

الفعل الثاني «يُسلّمونهم» يوضح كما سبق وفسرنا طريقة التعليم بالتلقين الشفاهي التي تعتمد على فحص المستحقين للتلقين ليستودعوهم سرائر الإيمان بالتسليم العملي مع التوضيح اللازم.

الفعل الثالث «ليحفظوها» تفيد طريقة انتشار التعليم بالتقليد الشفاهي إذ إنه لا يعتمد على الكتابة، فقد أصبح من الضروري إتقانه بالممارسة.

ومن واقع الأناجيل نفسها والرسائل يظهر الإلحاح الذي كان يعاود الرسل دائماً لحضّ المؤمنين على الرجوع إلى التقليد الشفاهي لتكميل حاجات الإيمان والعبادة:

ـ «تمسك بصورة الكلام الصحيح الذي سمعته مني.» (٢تى ١ : ١٣)

ـ «أما تذكرون أني وأنا بعد عندكم كنت أقول لكم هذا.» (٢تس٢ : ٥)

ـ «على أنكم تذكرونني في كل شيء وتحفظون التعاليم كما سلمتها إليكم.» (١كو١ : ١١)

ـ «ولكي تعلموا أنتم أيضاً أحوالي وماذا أفعل يعرّفكم بكل شيء تيخيكس.» (أف٦ : ٢١)

ومن هذا كله نرى أن طريقة التعليم المسيحي التي بدأت منذ أيام الرسل كانت تعتمد على الرسائل والكتب المقدسة، كما كانت تعتمد على التسليم الشفاهي جنباً إلى جنب كضرورة محتمة «فقد أرسلنا يهوذا وسيلا وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاهاً.» (أع ١٥ : ٢٧)

و بذلك لم يتوقف «التقليد الشفاهي» عن استمراره حتى بعد كتابة جميع أسفار العهد الجديد التي بُدىءَ في كتابتها بعد بدء الكرازة بالتقليد الشفاهي بنحو عشرين سنة، وكمل معظمها في نحو عشرين سنة كذلك، وآخر سفر كُتب بعد ذلك أيضاً بحوالي عشرين سنة أخرى، وهو إنجيل يوحنا.

وهكذا ظلت الكنيسة محتفظة بالوحي المقدس معلّناً في صورتيه التقليديتين «الكتابية والشفاهية»، وكلٌّ منهما تكمل عمل الأخرى وتثبتها.

ومن الأمور المحققة والثابتة أن كلاً من التقليد الشفاهي والأسفار المقدسة المكتوبة كان يحمل نفس القوة الإيمانية والإلهام والحياة والكرامة، وكان يطلق على كل منهما نفس الإصطلاح الإيماني بدون تفريق. إذ أن كلاً من التقليد الشفاهي والأناجيل كان يُدعى بنفس الأوصاف والإصطلاحات الواحدة الآتية:

παράδοσις أي تقليد

κανών أي قانون (الإيمان)

σύστημα المجموع (الإيماني)

مع إضافات كثيرة مشتركة أيضاً بين التقليد الشفاهي والكتابي؛ فكانا يوصفان بالتقليد الرسولي أو تقليد الرسل، قانون الإيمان أو قانون الحق القانوني الكنسي. (٦)

وقد ظل التقليد الشفاهي يتمتع بسلطان قوي في الكنيسة جنباً إلى جنب مع الأسفار المقدسة حتى تشربته الكنيسة، فصار شيئاً حياً فيها من جهة تعليم قانون الإيمان وتفسيره، وحفظ نصوص العقيدة كما أقرتها المجامع، مع الممارسات اليومية في العبادة والصلاة والتسبيح والإفخارستيا، وفي الطقوس العامة وشروطها، مثل انتخاب الرعاة ووضع اليد: [وإذا فرضنا أن الرسل لم يتركوا لنا كتاباتهم، ألم نكن مضطرين أن نعتمد على التعاليم التي في التقليد كما سلموها للذين وُضعت الكنائس في عنايتهم؟](٧)

القديس إيرينيئوس

(6) Ph. Shaff, The Hist. of Christ. Chur., II, p. 525.

(7) Iren., adv. Haer., II, 4, 1.

الفصل الثاني

المضمون العام للتقليد الكنسي

□□□

التقليد بكل صوره ومجالاته يختص بعملين أو فعلين كبيرين بالنسبة لكل نفس: **الأول** الإيمان بالله، **والثاني** الإتحاد به.

أما الإيمان بالله فيحتاج إلى معرفة شخصه، وأما الإتحاد به فيحتاج إلى عمل سري فائق، وهذان أمران مستحيلان لولا أن تجسد ابن الله فعرفناه فاستُعلن لنا واتحد هو بنا أولاً. فالمسيح بصفته «كلمة الله» الذي تجسد وحل بيننا، صار كلُّ من سمعه يكون قد سمع الله «الله كلمنا في هذه الأيام الأخيرة في ابنه» (عب١: ١و٢)؛ وبصفته «صورة الله غير المنظور ورسم جوهره» صار من يراه يكون قد رأى الآب: «الذي رآني فقد رأى الآب» (يو١٤: ٩). فلما صعد المسيح بجسد بشريتنا أرسل الروح القدس لينطق في الرسل حتى ينقلوا إلى الكنيسة بواسطة الروح القدس صورة حية ناطقة ووجوداً فعالاً بالإيمان بالمسيح كما سمعوه هم ورأوه ولمسوه وعرفوه حتى نقبله نحن بالإيمان وشركة الروح في القلب، فيكون لنا شركة أيضاً معهم فيه: «الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا... نخبركم به **لكي يكون لكم أيضاً شركة معنا... لكي يكون فرحكم كاملاً.**» (١يو١: ١-٤)

فهنا توصيل المسيح لا بد أن يتم على مستويين:
الأول سماعي «سمعناه»، وهذا هو الإيمان بالخبر.
الثاني روحي سري لقبول شركة الحياة معه وحلوله الشخصي، وهذا هو الإتحاد الذي يتم بالأسرار.

فطبيعة التقليد هي تسليم المسيح للمؤمنين **أولاً** بالكلمة أي بالتعليم النظري على مستوى الإيمان، **وثانياً** بالشركة العملية الحية الروحية على مستوى الأسرار بتوسط عمل الروح القدس.

وهكذا فإن التقليد الكنسي([1]) ينقسم إلى قسمين كبيرين:
(١) القسم **النظري**: ويختص بطريقة شرح وتوضيح الحق المعلَن في الإنجيل، وتحديد معاني الألفاظ الإيمانية تحديداً قانونياً مُلزِماً لكل المؤمنين.

(٢) القسم **العملي**: ويختص بالفرائض والطقوس والعوايد المستقرة، مع كافة الممارسات العملية المسلَّمة من الرسل مع أحكامها.

وهكذا نجد أن طبيعة التقليد تنقسم إلى قسمين كبيرين: قسم إيماني نظري تعليمي، وقسم إيماني عملي سرائري.

أولاً: التقليد التعليمي: ويختص بتسليم الإيمان بالله وتفسيره وشرحه وتحديد نصوصه، إنما على مستوى الروح، كما تسلَّمه الرسل من التعاليم الشفوية الخاصة التي تقبَّلوها من المسيح رأساً حينما كان يعرِّفهم بأسرار الملكوت، وكما أعطاهم الروح القدس حسب وعد المسيح أنه سيُعرِّفهم «كل الحق»، حتى أعماق الله.

---

(١) يلاحظ القارىء أن هذا الكتاب: «التقليد الكنسي» هو تمهيد لكتب التقليد السرائري التي ظهر منها أولاً كتاب: «الإفخارستيا والقداس» الجزء الأول.

ثانياً: التقليد السرائري: ويختص بتسليم الإيمان على صورة **شركة عملية بالروح مع الله**، تتم في الأسرار بواسطة حلول الروح القدس.

إذ أن الخلاص الذي يعطيه المسيح لا يتم فقط بالإيمان القلبي به، بل يلزم أيضاً أن يكمل بالشركة السرية معه «**من آمن واعتمد خلص**» (مر١٦: ١٦). هنا الإيمان قبول، والإعتماد شركة.

وكذلك أيضاً قد عرَّفنا المسيح أن الثبوت فيه لا يتم بالإيمان القلبي فقط «أثبتوا فيَّ» (يو١٥: ٤)، بل يلزم أن يكمل بالشركة السرية معه أيضاً: «من يأكل جسدي و يشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه» (يو٦: ٥٦). هنا التناول أي الإفخارستيا هو توسُّط بالنعمة السرية الفائقة لإعطاء حالة شركة لثبوت دائمة.

وكذلك أيضاً قد عرَّفنا المسيح أن الغفران الكامل الذي وهبه المسيح للكنيسة كلها مجاناً بدمه لا يتم فقط بالإيمان القلبي بالدم المسفوك، بل يلزم أيضاً قبول سر الغفران الفردي من الروح القدس من الخادم المرسَل لتكميل سر الغفران «كما أرسلني الآب أرسلكم أنا، ولما قال هذا **نفخ وقال اقبلوا الروح القدس. من غفرتم خطاياه غُفرت له** ومن أمسكتم خطاياه أُمسكت.» (يو٢٠: ٢١و٢٢)

فهنا سر الإعتراف والغفران هو توسُّط بالنعمة لتكميل حالة شركة بلا لوم في المحبة (وعلامتها قُبلة الصفح).

وهذه الأسرار لم يذكرها الإنجيل بالتفصيل، ذلك لأنها تُمارَس عملياً، لذلك تحتاج إلى تسليم عملي من يد ليد ومن فم لفم ومن روح لروح وليس بالقراءة أو سماع الأذن: «لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً» (١ كو١١: ٢٣). وحينما يضطر الرسول لذكر شيء عن هذه الأسرار لا يستطيع أنْ يخوض في التفاصيل

لأنها حُجزت عن العامة ولا تُكشف إلا للمسئولين عنها فقط: «وأما الأمور الباقية فعندما أجيء أرتبها.» (١ كو١١: ٣٤)

القسم العملي من التقليد الكنسي(٢): Δόγμα

١ ــ + «من يأكل جسدي و يشرب دمي فله حياة أبدية وأنا أقيمه في اليوم الأخير.» (لو٦: ٥٤)

حينما جلس الرب مع تلاميذه وأجرى طقس العشاء الأخير أودعه السر الإلهي لجسده ودمه، كيف أجرى هذا الطقس وماذا قال أثناء الشكر وأثناء التقديس وأثناء البركة وأثناء الكسر؟

كيف بدأ سر العشاء وكيف انتهى؟

٢ ــ + «إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو٣: ٥)

وحينما كان المسيح يعمد مع تلاميذه كيف كان يُجرى طقس العماد؟ وماذا كان يقول أثناء العماد؟ وبماذا كان يوصي المعمَّدين؟

٣ ــ + يا رب علمنا أن نصلي».

وحينما كان المسيح يصلي مع تلاميذه ويمضي أوقاتاً كثيرة في الصلاة بماذا كان

---

(٢) Δόγμα معنى هذه الكلمة كما جاءت في الإنجيل (لو٢: ١، أع١٦: ٤، أع١٧: ٧، أف٢: ١٥، كو٢: ١٤) يتجه إلى ناحيتين: الأولى: أحكام ومراسيم (قضايا)، والثانية: فرائض وطقوس. فإذا جمعنا المعنيين معاً نجد أنه كان يفيد في الماضي معنى الفرائض والطقوس مع أحكامها الخاصة بها. وهذا المعنى خاص بالتقليد الكنسي، وهو يخالف المعنى اللاهوتي الشائع الآن الذي ينحصر في مفهوم العقيدة والتعاليم النظرية الخاصة بالإيمان الفاصلة بين الحق والباطل، فتصبح كلمة دُجْما dogma تعني «عقيدة». وقد انقسمت المدارس الفلسفية منذ القديم إلى ثلاثة أنواع بالنسبة للدُجا أي قوانين العقيدة: المدرسة الأولى تخضع خضوعاً كلياً للعقيدة والمدرسة الثانية تضع الدُجا موضع الشك وتسمى مدرسة الشكاكين، والمدرسة الثالثة تضع الدُجا موضع البحث والتحليل وتسمى مدرسة البحوث وهي الأكاديمية.

يصلي؟ وكيف كان يسجد؟ وماذا كان يقول عندما يرفع يديه في الصلاة و ينظر إلى فوق؟

+ **«وسبَّحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون»**.

وحينما اجتمع المسيح مع تلاميذه في العلية «وسبحوا وخرجوا» بما كانوا يسبِّحون؟ وكيف كانوا يسبِّحون ويختمون التسابيح؟

كل هذا نقرأ عنه فقط في الإنجيل، ولكن لا نعرفه معرفة عملية يقينية حتى نباشره نحن أيضاً بنفس الطريقة، إلا من التقليد المسلَّم إلينا من الرسل حسب ما تسلموه من المسيح نفسه «**لأنني تسلمت من الرب ما سلَّمتكم** أيضاً أن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً وشكر وكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي... كذلك الكأس أيضاً بعدما تعشوا قائلاً هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي... وأما الأمور الباقية فعندما أجيء أرتبها.» (١كو١١: ٢٣ــ٣٤)

التقليد الرسولي هنا ينقل إلينا جزءاً هاماً جداً وخطيراً من حياة المسيح وتدبيره العملي لتكميل رسالة الخلاص. الإنجيل يصف لنا مجمل العمل نظرياً، ولكن يستحيل علينا ممارسته بنفس الطريقة إلا عن طريق التسليم العملي، هذا التسليم العملي هو الجزء السري من إنجيل المسيح غير المكتوب الذي احتفظ به الرسل ليسلِّموه بأنفسهم وليس بالكتابة. لذلك يقول بولس الرسول في نهاية وصف الجزء الإيماني من هذا الطقس: «وأما الأمور الباقية فعندما أجيء أرتبها». وكانت هذه تشمل كافة الأحكام المتعلقة بالسر حتى يتم إجراؤه بنفس الروح والطريقة في كافة الكنائس.

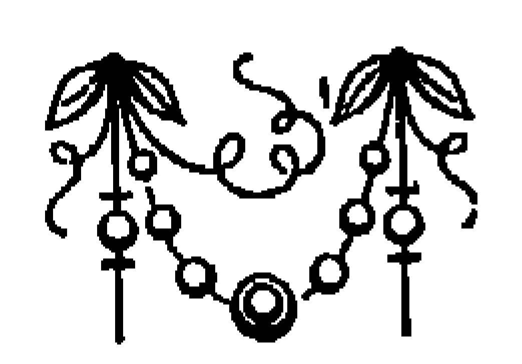
أما بخصوص العماد فالإنجيل يذكر القانون الخاص به: «عمدوهم باسم

الآب والإبن والروح القدس» (متى٢٨ : ١٩). ولكن طريقة الممارسة والوصايا الخاصة بالعماد والأحكام المتعلقة به، فلا نجدها في الإنجيل وإنما نتسلمها من الكنيسة تعززها شهادات ووثائق دقيقة تثبت أنها تسليم رسولي.

وكذلك بخصوص الصلوات والتسابيح فهي لم تنقطع قط من الكنيسة منذ صلوات وتسابيح العلية بطرائقها ومعانيها كتسليم حي بالروح دائم الجريان كنهر لم ينقطع من منبعه الذي هو المسيح... وهذا سوف نثبته بالدليل القاطع عندما نتكلم عن الصلوات والتسابيح في مكانها.

***

وسوف نبدأ بتقديم التقليد التعليمي، أما التقليد السرائري فأصدرنا منه كتاب: «الإفخارستيا والقداس» (٣) و يليه كتاب: «المعمودية المقدسة».



(٣) صدرعام ١٩٧٧.

الفصل الثالث

القسم التعليمي النظري من التقليد الكنسي

KHPYΓMA (*)

□□□

تمهيد

لقد ظل الرسل يتقبلون من الروح القدس، حتى بعد كتابة الأناجيل، كثيراً من الإلهامات بخصوص الحق الإلهي الذي أُعلن لهم و بخصوص شرح وتوضيح الإيمان والقضايا المتعلقة بظروف المؤمنين في كل مكان. وقد اضطر الرسل منذ البدء إلى تحديد بعض معاني الوصايا والكلمات حتى لا يستخدمها المؤمنون إلا حسب معناها الأصيل كما استلموها هم من الرب أو بالروح القدس (أع ١٦: ٤): «وإذ كانوا يجتازون في المدن كانوا يسلمونهم القضايا τὰ δὸγματα التي حكم بها الرسل والمشايخ الذين في أورشليم ليحفظوها».

وبمرور الزمن ازدادت الحاجة جداً إلى هذا الشرح والتحديد مما اضطر أساقفة الكنيسة المؤتمنين على هذه الوديعة إلى عقد مجامع مسكونية لجعل هذه التحديدات في صورة قانون كنسي يلتزم به المؤمنون.

(*) κήρυγμα هذه الكلمة كما جاءت في الإنجيل في (متى ١٢: ٤١، لو١١: ٣٢، رو١٦: ٢٥، ١كو١: ٢١، ١كو٢: ٤ و١٥: ١٤، ٢تي ٤: ١٧، تي ١: ٣) ينحصر في معنى المناداة أو الكرازة. ولكن استخدمها الآباء و بالأخص القديس باسيليوس في شرح وتحديد معاني الإيمان.

ومثالاً لذلك نجد أن الإنجيل أعلن فقط في البداية سر الثالوث في قانون العماد «باسم الآب والإبن والروح القدس» . ولكن عندما بدأت الكرازة بالإنجيل اضطر الرسل إلى تحديد العلاقة بين الآب والإبن والروح القدس تحديداً مبدئياً بسيطاً حتى يدرك المؤمنون قوة وعمل كلٍّ من الآب والإبن والروح القدس .

ولكن بظهور المقاومات الفكرية والمبتدعين ، اضطر الآباء إلى تحديد أكثر في العلاقة . وهكذا استمرت هذه التحديدات تأخذ مداها في الدقة للتعبير عن الحقيقة الأولى التي قصدها المسيح في آخر إنجيل متى حتى استغرقت من الكنيسة أربعة قرون كاملة وثلاث مجامع مسكونية ومئات من الرسائل والحجج والمدافعات والبراهين إلى أن استقر المعنى الأصيل ، وذلك عن طريق القانون الكنسي القاطع .

هذا هو التقليد الكنسي النظري بقيمته الفائقة .

فلولا مجمع نيقية الذي مثل الكنيسة الحية ودفاع القديس البابا أثناسيوس الرسولي ، لصار العالم كله آريوسياً ولتحطمت قيمة الفداء وتلاشى رجاء الإنسان في الحياة مع الله ـــ ولكن حاشا لله .

ولولا المجمع الثالث ودفاع القديس كيرلس الإسكندري لصار العالم كله نسطورياً فاقداً لقيمة التجسد الإلهي وقوته وفاعليته في الإنسان لرفعه إلى حالة إتحاد حقيقي مع الله ـــ وحاشا لله .

إذن ، فالتقليد الكنسي بشقيه العقائدي العملي Δόγμα والعقائدي التفسيري النظري κήρυγμα يقف مع الإنجيل موقفاً غاية في الأهمية . فهو من الناحية العملية يضع الإنجيل موضع العمل و يتنازل به إلى بؤرة القوة والحركة السرية من داخل الطقوس والأسرار، ومن الناحية النظرية يسنده و يؤمِّن معانيه

بالقانون الكنسي ضد الإنحرافات الفكرية؛ و يشرح أسفاره بسلطان الروح وإلهامه؛ كما كان التقليد أهم عامل في تحديد قانونية أسفار العهد الجديد ـــ أي الإنجيل ذاته.

ولقد أخصب التقليد الكنسي الإنجيل باصطلاحات وألفاظ غاية في القوة والعمق والنور والحياة، فكلمة «الثالوث» وكلمة «الأقنوم» وكلمة «المساواة في الجوهر» ὁμοούσιος و«المساواة في الكرامة» ὁμοτιμία و«وحدة الرئاسة والإنبثاق» μονάρχη و«الذوكصا» Δόξα لتمجيد الثالوث وتسبيحه، هذه كلها أوضحت أعماق اللاهوت وقرّبت الحقائق الإلهية من فكر الإنسان.

قيمة التقليد الكنسي عند الآباء

حيثما يُذكر التقليد، نذكر في الحال جماعة الآباء الأوائل الذين عاشوا في التقليد الرسولي بلمساته الأولى الحية وأحبوه وعشقوه واغتنوا به، وطبعوه على قلب الكنيسة التي حملته إلينا بحيويته الأولى مع نفثات عطرة من كل قطر وكل بلد من بلاد العالم. فالقديس إيرينيئوس من فرنسا، وهيبوليتس من الإسكندرية وإيطاليا، وترتليان من أفريقيا، والقديس أثناسيوس من مصر، والقديس كيرلس من أورشليم، والقديس باسيليوس من قيصرية، والقديس يوحنا ذهبي الفم من القسطنطينية، هؤلاء وغيرهم جعلوا التقليد الكنسي زاخراً بشتى أنواع المواهب التي أفاضها الروح القدس عليهم.

[وإذا لم يكن الرسل قد تركوا لنا كتاباتهم، ألم نكن مضطرين أن نعتمد على التعاليم التي في التقليد كما سلموها للذين وُضعت الكنائس في عنايتهم.] **القديس إيرينيئوس** (١)

(1) Iren., adv. Haer., iii, 4. I.

[الذي يزدري بالتقليد الكنسي لا يعود يحسب من أولاد الله .] **العلاّمة كلمنضس الإسكندري**(٢)

[لا يُعتبر أي أمر أنه حق إلا إذا كان لا يتناقض قط مع التقليد الكنسي الرسولي .] **العلاّمة أوريجانس** (٣)

[وعلينا أن نعتبر جداً هذا التقليد الذي هو تعليم وإيمان الكنيسة الجامعة الذي أعطاه الرب منذ البدء ، وكرز به الرسل ، وحفظه الآباء ، والذي عليه تأسست الكنيسة وقامت .] **القديس أثناسيوس الرسولي**(٤)

[للمعمَّد : إننا الآن نسلمك «سراً» الذي هو رجاء الحياة الآتية ، أحرس السر من أجل هيبة الله الذي يعطي الجزاء .] **القديس كيرلس الأورشليمي**(٥)

[أنا لا أؤمن بالإنجيل إلا كما يوجهني سلطان الكنيسة .] **القديس أغسطينوس** (٦)

[وهنا ربما يسأل إنسان : إن كانت الأسفار المقدسة قد تحددت قانونياً وهي كاملة وكافية في ذاتها لكل شيء بل وأكثر من كافية أيضاً ، فما الحاجة أن نضيف إليها سلطان الكنيسة من جهة تفسيرها ؟ والرد على ذلك هو أنه بسبب عمق الأسفار المقدسة صار مستحيلاً أن يفهمها الجميع أو يقبلوها بمعنى واحد ، فواحد يفهم الكلمات بطريقة ، والآخر بطريقة أخرى ، حتى بدت وكأنها قابلة لأن تُشرح بطرق تساوي عدد الشُّرّاح أنفسهم .

---

(2) Clement, Strom., VII, 16.
(3) Origen, De princip. proem, 1.
(4) Ad. Serap. 1.28.
(5) Pro. Cate. 12,7.
(6) Contra Manichaei I.1.

فنوفاتيان (المبتدع) يشرحها بطريقة، وسابيليوس رفيقه بطريقة أخرى، وهكذا دوناتوس وآريوس وإينوميوس ومقدونيوس وفوتينوس وأبوليناريوس وبريسكليان وإيفونيان وبيلاجيوس وسيلستيوس وأخيراً نسطوريوس. لهذا أصبح من الضرورة المحتمة بسبب هذه الإنحرافات المشوشة الخطيرة أن يُفرض قانون يحدد شرح وفهم الأنبياء والرسل في إطار التفسيرات الكنسية الأصيلة الجامعة. على أن تتخذ كافة الإحتياطات لأن نتمسك بالإيمان الذي **ساد على مدى الزمن وقَبِله الجميع في كل مكان**. فهذا حقاً هو الإيمان «الكنسي الجامع» بالمعنى الدقيق.]
القديس فانسان من ليرين (٧)

ومن هذا التفسير لقيمة التقليد اتخذت الكنيسة عموماً والكنيسة الغربية خصوصاً مضمون قانون التقليد العام المسمى بـ «قانون ڤنسنت» ومؤداه هكذا:
[التقليد الإيماني يرسو على ثلاثة أعمدة: الإيمان الذي ساد في «كل مكان»، الإيمان الذي ساد «في كل زمان»، الإيمان الذي «ساد على كل المسيحيين».]

[وإنه جدير أن نعرض بالتفصيل لما قاله الرسول بولس لتيموثاوس: «يا تيموثاوس احفظ الوديعة مُعرضاً عن الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الإسم الذي إذ تظاهر به قوم زاغوا من جهة الإيمان.» (١تي ٦: ٢٠)

«احفظ الوديعة» ــ ما هي الوديعة؟ هي ما استؤمنتَ عليه وليس ما تقترحه أنت. هي ما تعلّمتَه وليس ما تخترعه بذكائك وحكمتك، هي التقليد العام وليس ما يتبناه فكرك، هي ما انحدر إليك ووصلك وليس ما تخلقه من نفسك. هي ما أنت ملزم أن ترتبط به لتحفظه لا أن تؤلفه، حتى تبقى من تحتها تلميذاً لا معلماً من فوقها.

(7) A Comm., 13.

«احفظ الوديعة» ! أي احفظ موهبة الإيمان العام بغير دنس بغير غش ، وما اؤتمنت عليه فاحتفظ به دائماً حتى تُسلِّمه للآخرين ــ لقد تسلمتَ ذهباً سلِّمه ذهباً .

يا تيموثاوس ! أيها الكاهن ! أيها الشارح ! أيها المعلم ! إن كانت الموهبة الإلهية التي تسلمتها قد زادتك حكمة وزادتك مهارة وزادتك علماً ، فكن كبَصَلْئيل لأنك اؤتمنت على الخيمة الروحية . فرصِّعها أنت بالجواهر الثمينة بالتعاليم الإلهية المتقنة ، زيِّنها بمهارة لتزداد بواسطتك مجداً وجمالاً ونعمة . وكل التعاليم التي قبلتها بالإيمان وكانت سابقاً مفهومة فهماً غير صحيح ، اشرحها جيداً لتُفهم بواسطتك فهماً صحيحاً . هيىء للأجيال الصاعدة أن تتقبل وتفهم بوضوح ما تقبَّله الأسلاف قديماً ووقروه وكرموه دون أن يفهموه .

علِّم بنفس الحقائق التي تعلمتها حتى ، بينما تتكلم أنت بطريقة حديثة ومنهج جديد ، يكون ما تُعلِّم به وتتكلم عنه ليس جديداً .](٨)

القديس إيرينيئوس :

[وحينما نعتمد على التقليد الذي انحدر إلينا من الرسل محفوظاً بالتسليم على التتابع بيد الشيوخ (والكهنة والأساقفة) في الكنائس ، نجدهم يقاومون التقليد نفسه (الهراطقة فالنتينوس ومارسيون وكيرنثوس) مدعين إنهم أكثر حكمة من الشيوخ بل ومن الرسل أيضاً متوهمين أنهم قد وجدوا الحق الأصيل ... والذي حدث هو أنهم لن يتفقوا مع الإنجيل ولا مع التقليد .

إن مثل هؤلاء ، أيها الحبيب ، ينبغي أن نقاومهم لأنهم كالحيات الناعمة

---

(8) Vincent, ch. XXII.

يحاولون أن يفلتوا دائماً من أيدينا ، فعلينا أن نحاصرهم من كل جهة حتى إذا قطعنا عليهم منافذ الهروب نستطيع أن نجتذبهم إلى الحق مرة أخرى... ولو أنه صعب على النفس التي أُمسكت في الخطأ أن تعود وتتقهقر إلا أنه إذا أبرزنا الحق إزاء الخطأ فليس من العسير أن نُجبر الخطأ على الفرار.

فالتقليد الرسولي واضح الآن في كل العالم يُرى بنفس الوضوح في كل كنيسة ، إنما لدى الذين ير يدون أن يقبلوا الحق فقط .

وإن كان الرسل قد احتفظوا بمعرفة الأسرار في الخفاء والتي علّموها للكاملين سراً وفي الخفاء أيضاً بعيداً عن أنظار الآخر ين ، فإنهم سلّموها بتدقيق للذين استأمنوهم على الكنائس ذاتها . لأنهم أرادوا أنَّ الذين سيخلفونهم في نفس مراكزهم و بنفس تعاليمهم يكونون كاملين بكل تأكيد بلا لوم . إذ أن سلوكهم إن كان صحيحاً وسليماً يصبح ذا منفعة عظمى للكنيسة ، أما إخفاقهم فيكون الطامة الكبرى عليها .](٩)

[ونحن لا ينبغي قط أن نفتش عن الحق أو نطلبه من الآخر ين (الخارجين من الكنيسة)، لأنه يسهل الحصول عليه بواسطة الكنيسة . لأن فيها استودع الرسل وديعتهم ، كما يصنع الأغنياء ، إذ سلموها بكل ما يتعلق بالحق ، حتى أن كل من أراد يستطيع أن يأخذ منها ماء الحياة . فالكنيسة هي باب الحياة والآخرون هم سُرّاق ولصوص . وعلينا أن نتجنبهم ونلتصق بكل غيرة الحب لكل شيء داخل الكنيسة ونتمسك بالتقليد الحق .](١٠)

العلاّمة ترتليان :

وقد نقلها بالحرف من هيبوليتس الذي يعيب على ترتليان تمسكه بالمنطق

(9) Iren., Apost. Trad., E.C.F., Vol. I p. 372.
(10) Ibid. p. 374.

و برهان العادة، مع أن التقليد يقوم على الإيمان العام فقط.

[فإذا كانت الأسفار المقدسة لم تصفها (هذه الممارسات)، فالعادة التي انحدرت بالتقليد المسلم تدعمها بكل تأكيد. لأنه كيف يمكن أن يدخل شيء في الإستعمال داخل الكنيسة ـ إذا لم يكن قد تسلَّم سابقاً؟

وحينما نطالب بضرورة الرجوع إلى سلطان الأسفار المقدسة، إذا أردنا أن نلتجيء إلى التقليد فنحن نسأل هل يمتنع علينا استخدام التقليد إذا لم يكن مدعَّماً بالكتاب؟ هذا يكون حقاً إذا لم نكن نمارس أموراً أخرى لا توجد لها أية أدلة من الكتاب ولا تقوم إلا على التقليد فقط، وحكم العادة يوفر لنا دليل السابقة.

ولكي نفسر هذا الأمر باختصار نبدأ بالمعمودية: فعندما نقترب من النزول في الماء في محضر من الجماعة وتحت يد الرئيس نعترف رسمياً أننا نجحد الشيطان وكل كبر يائه وملائكته، وعندئذ نغطس في الماء ثلاث مرات، و بذلك يصير تعهدنا أكثر مما نص عنه الرب في الإنجيل. وعندما نخرج يُذيقوننا عسلاً بلبن، ونمتنع من ذلك اليوم عن الإستحمام اليومي لمدة أسبوع. وقبل **انبثاق الفجر**[11] في وسط الجماعة نتناول من يد الرئيس (الأسقف) سر الإفخارستيا مع أن الرب قد أمر أن تؤكل في **وقت العشاء**[12] و يأكلها الكل سواء.

وعندما تأتي الذكرى السنوية (للأموات) نوزع التقدمات عن الأموات كما يليق بيوم الميلاد (الحقيقي). وكذلك نعتبر أن الصوم وإحناء الركب أثناء العبادة في يوم الرب أمر ممنوع وغير قانوني. على أن هذا الإمتياز عينه يسري أيضاً في كل أيام

---

(١١) التناول للمعمَّدين قبل انبثاق الفجر إشارة إلى حدوث المعمودية يوم سبت النور حيث التناول يكون في قداس عيد الفصح (القيامة) الذي يخرج عادة في الفجر.

(١٢) هكذا يظهر الفرق بين وصف ممارسة سر الإفخارستيا في الكتاب و بين ممارسته عملياً حسب التقليد الرسولي مما يدل على أنه قد حصل تعديل في التسليم الأول.

الخمسين من بعد الفصح حتى يوم حلول الروح القدس .

ونحن نحترس جداً ونتألم إذا سقط من أيدينا أي جزء من الخبز أو الخمر على الأرض عند التناول . (١٣)

وفي كل خطوة نخطوها للأمام وكل خروج ودخول ، وعندما نلبس ملابسنا وأحذيتنا ، وعندما نستحم ، وعندما نجلس على المائدة ، وعندما نشعل المصابيح ، وعندما نستلقي على الفراش أو على المقعد ومع كل أعمال النهار العادية ، نرشم علامة الصليب على جبهتنا .

فإذا صممت على أن تحصل على الدليل الكتابي لهذه الأعمال وغيرها ، فلن تجد شيئاً .

فالتقليد يقوم لك كمصدر لها جميعاً ، والعادة تقوم مقام الموثق ، والإيمان كشاهد .

وكون المنطق العقلي يسند التقليد و يسند العادة و يسند الإيمان ، فهذا إما تدركه أنت بنفسك وإما تلتجىء لآخر يكون له هذا المنطق ليعلمك «فليفتكر هذا جميع الكاملين منا وإن افتكرتم شيئاً بخلافه فالله سيعلن لكم هذا أيضاً . وما قد أدركناه فلنسلك بحسب ذلك القانون عينه ونفتكر ذلك عينه .» (في ٤ : ١٥ و١٦)

هذه الأمثلة كفيلة بأن تجعل موضوع التقليد غير المكتوب محقَّقاً ومصدَّقاً ، الذي تقوم حجته الآن على العادة المسلَّمة وطول الممارسة .] (١٤)

كان التقليد في الكنيسة الأولى هو ، بالدرجة الأولى ، عنصراً توضيحياً للإيمان

---

(١٣) أنظر قانون هيبوليتس في: Bunsen's Hip., vol. III.

(14) Tert., De Corona, ch. III, IV, A.N.F., vol. III.

والطريق الرسولي المؤتمن لشرح وتفسير مواضيع الإيمان الواردة في الأسفار.

فالكتاب المقدس بعهديه كان لا يمكن الدخول إلى معانيه ومقاصد الله فيه إلا على ضوء التقليد الرسولي الحي وإبراز القرائن والأدلة المسلَّمة من الرسل. لذلك كانت الأسفار تصنع مع التقليد الرسولي وحدة متكاملة هي أساس الوجود المسيحي الذي لا زلنا نعيشه حتى اليوم.

ولم يكن من خصائص التقليد قط أن يضيف شيئاً على الإيمان المعلن في الأسفار المقدسة، وإنما كان من أهم خصائصه تقديم الأدلة والقرائن القوية الحية من سيرة الرسل وأعمالهم وأقوالهم وتعاليمهم المسلَّمة بالتقليد لإبراز الحقائق الإيمانية وشرح وتوضيح الإستعلانات الإلهية وقبولها.

فالتقليد لم يكن أبداً مجرد نقل وتسليم أعمال وتعاليم وأقوال موروثة، بل هو امتداد لحياة إيمان عبر الأجيال الحية وليس عبر الزمان الميت. ومن هذا أصبح الكتاب المقدس ليس مجرد تعاليم أو آيات نقتبسها منفصلة لندلل بها على فكرة أو رأي خاص، **وإنما الكتاب المقدس من خلال التقليد المقدس أصبح هو بالتالي أيضاً حياة، أما بدون التقليد المقدس فلا يمكن أن يصبح الكتاب المقدس حياة بل علماً ومعرفة ومحاجاة ونزاعاً.**

حينما يتدخل التقليد و يشرح الكتاب المقدس، يدعمه بالحياة المستمدة من الرسل والمسيح التي عاشت عليها الأجيال المتعاقبة بمقتضى هذا التقليد ولا زالت تعيش!

ولذلك فإن الشرح الحقيقي للكتاب المقدس لا يكون إلا بتقديمه كحياة حسب الإيمان الحق، أو بمعنى آخر هو التقليد المسلَّم إلينا. والشرح الحقيقي للكتاب المقدس

لا يمكن أن يكون حقيقياً إلا إذا كان حياً مستمداً من حياة سابقة ــ آباء عن آباء ــ مستمدة من الرسل والمسيح، وهذا لا يمكن ولن يكون إلا من خلال الكنيسة و بواسطتها.

والمعنى الصحيح لأي آية في الكتاب المقدس هو جزء لا يتجزأ من الآية، أما صحة المعنى لأي آية فهو يلتزم بحدود الحياة الإيمانية بها التي عاشتها الكنيسة من أب لأب و يدخل مباشرة فيها!!

إذن، فالمحاجاة والنقاش والجدل والإقتباسات سواء من الكتاب المقدس أو التقليد أمر لا يكفي ولا يبني الإيمان المسيحي الصحيح، إذ لا بد من شرح الكتاب المقدس بالتقليد، وشرح التقليد بالحياة حسب أصول الإيمان، والتأكد من الحياة أنها مُستلَمة من داخل الكنيسة!

وأوضح مثل لذلك هو ما قدمه لنا القديس باسيليوس في محاجاته عن ألوهية الروح القدس مع بقايا الآريوسيين في بلاده. حيث يستخدم القديس باسيليوس التقليد الحي والممارَس في الكنيسة لإثبات مساواة الروح القدس في المجد مع الآب والإبن حيث تعبير «الهوموتيميا» ὁμοτιμία هو بعينه عند القديس باسيليوس «الهومو أوسيوس» ὁμοούσιος أي المساواة في الجوهر.

وهو يبتدىء نقاشه على أساس أن الفرائض والتعاليم κήρυγμα καὶ Δόγμα المحفوظة في الكنيسة، بعضها حصلنا عليه كتابة (الإنجيل)، و بعضها حصلنا عليه من (التقليد) الرسولي الذي سلموه إلينا **«عن طريق الأسرار»**، وكلاهما له نفس القوة في أمور العبادة. (١٥)

---

(15) De Sp. S., 66.

والقديس باسيليوس لا يفصل بين الإنجيل والتقليد ولكن يجمع بين ما تسلَّم شفاهاً وما تسلَّم عن طريق القلم.

والقديس باسيليوس يحدد بدقة كلمة عقيدة Dogma في التقليد الشفاهي بأنه ما قد استقر في مذهب الكنيسة من عوائد وفرائض وممارسات إيمانية سرية غير مدونة. وهذه تشمل في الواقع قوام الحياة السرائرية والمواصفات القانونية للخدمات الليتورجية بكافة دقائقها[16] التي لم يكن يعرفها إلا الأخصاء الممارسون لها فقط. وهذا المعنى يخالف قليلاً المعنى الحديث لكلمة dogma الآن.

كما يقصد القديس باسيليوس بكلمة «تعاليم وعظية» Kerygmata في التقليد الشفاهي التعاليم الرسمية المضبوطة ذات السلطان الكنسي فيما يختص بشرح وتحديد وإعلان أمور الإيمان عامة وعلنياً بصورة وعظ أو دفاع عن الإيمان.

كما يقصد القديس باسيليوس بكلمة «عن طريق الأسرار» استلامنا هذه التعاليم والعقيدة ليس بطريق الكتابة إنما في صورة طقوس وممارسات ليتورجية **وعادات خاصة كنسية**، حيث «العادة» هنا تشير إلى تسليم أمور الإيمان عملياً كفريضة حية دائمة.

ــ «حيث جرت **العادة** أن تكون صلاة.» (أع١٦ : ١٣)
ــ «فليس لنا نحن **عادة** مثل هذه ولا لكنائس الله.» (١كو١١ : ١٦)
ــ «ويسوع ,, **كعادته**،، كان أيضاً يعلمهم.» (مر١٠ : ١)

ويركز القديس باسيليوس في محاجاته على طقوس وممارسات وعادات سرّي

(١٦) كحقائق دينية تقبلها الرسل بالإلهام الإلهي أو بتسليم المسيح رأساً وقامت بوصفها وتحديدها.

العماد والإفخارستيا بنوع مخصوص بصفتها من التسليمات الرسولية التي تحوي دقائق الإيمان: «وتحفظون التعاليم كما سلمتها إليكم» (١كو١١: ٢). «لأنني تسلمت من الرب ما سلمتكم أيضاً أن الرب يسوع في الليلة التي أُسلم فيها أخذ خبزاً وشكر فكسر وقال خذوا كلوا هذا هو جسدي... وأما الأمور الباقية فعندما أجيء أرتبها» (١كو١١: ٢٣-٣٤)، «وما تعلمتموه، وتسلمتموه، **وسمعتموه، ورأيتموه فيَّ** فهذا افعلوا وإله السلام يكون معكم.» (في٤: ٩)

وقد جمع القديس بولس الرسول كل وسائل التقليد الشفاهي بهذه **الأفعال الأربعة: تعلمتموه، تسلمتموه، سمعتموه، رأيتموه**؛ ثم الإستجابة لهذه الأفعال الأربعة في كلمة «هذا **افعلوه**» !!

وفي دفاع القديس باسيليوس عن التقليد كحارس أمين لدقائق الإيمان يشدد على أهمية الممارسات التقليدية بصفتها تسجيلاً حياً للعقيدة، يقول:
[فإذا حاولنا أن نرفض هذه العوائد بحجة أنه لا يوجد ما يدعمها كتابة أو على أساس أنها ذات أهمية بسيطة، فنحن دون أن ندري نسيء إلى الإنجيل في صميم حيويته حيث يصبح ترديدنا العام لمنطوق الإيمان مجرد جمل وكلمات.](١٧)

ثم يعود القديس باسيليوس يقدم أمثلة من حياتنا اليومية في ممارستنا للعبادة مأخوذة بالتقليد وليس هناك ما يدعمها من نصوص الإنجيل:
[وعلى سبيل المثال نأخذ أول الأعمال وأكثرها عمومية وهو رسم إشارة الصليب، فمن الذي علمنا بالكتابة أن نمارسه نحن الذين آمنا باسم يسوع المسيح ربنا؟ وما هي الكتابة التي تُعلمنا أن نتجه ناحية الشرق في الصلاة؟ ومَنْ مِنْ

(17) Ibid., XXVII.

القديسين كتب لنا الكلمات التي نستدعي بها الروح القدس على خبز الشكر وكأس البركة؟ وهكذا يظهر أننا لم نكتفِ بما دوّنه الإنجيل والرسل في ذلك، فأضفنا كلمات على ما كتبه الإنجيل والرسل وهي كلمات في غاية الأهمية لإجراء السر. وهذه الكلمات استقيناها من مصادر غير مكتوبة.

وأيضاً نحن نقدس ماء المعمودية وزيت المسحة وأيضاً نقدس الموعوظ المزمع تعميده، فبأي سلطة كتابية نمارس هذه الأعمال؟ أليس هو سلطان التقليد الذي يبدو صامتاً وسرياً؟

نعم وأيضاً ما هي الكلمات المكتوبة التي تعلمنا كيف نمارس مسحة الزيت المقدس، ومن أين استقينا عادة التعميد (بالتغطيس) ثلاث مرات؟ وبخصوص بقية عوايد العماد ما هي الأسفار التي تُعلمنا جحد الشيطان وملائكته؟ أليست هذه كلها قد انحدرت إلينا من التعاليم السرية غير المكتوبة التي حفظها آباؤنا في صمت بعيداً عن متناول الفضوليين والمتقصِّين وراء المستغربات؟](١٨)

[فرائض العقيدة والتعاليم الوعظية هما شيئان متميزان، فالفرائض تراعَى في صمت ولكن التعاليم يمكن أن تُذاع على كل العالم.](١٩)

«التعليم السري» طريقة تسليم التقليد: Disciplina Arcani

وهو اصطلاح جاري في البحوث الآبائية: ويوضح القديس باسيليوس أن التقليد ظل بدون أية كتابة في الكنيسة، وذلك عن قصد حتى لا يصل إلى أيدي الفضوليين والذين يستقصون وراء كل أمر غريب وبذلك ظلت جميع الممارسات الخاصة بالأسرار والليتورجيا وشروط الصلاة ومواصفات الخدمة في طقوسها داخل

(18) Ibid.
(19) Ibid.

الكنيسة لا تسلَّم إلا للذين تقبلوا سر الإيمان أو سر الإستنارة أي المعمَّدين، وذلك عن طريق التلقين الشفاهي فقط، أما كيفية ممارسة الأسرار فحُفظت في طي السرية الكاملة ولا تسلَّم إلا للكهنة فقط.

فقانون الإيمان مثلاً، وهو معتبر من أهم أسرار التقليد، كان لا يُسمح للموعوظ معرفته أو حفظه إلا بعد نجاحه في كافة الإجراءات اللازمة لقبوله العماد وقيد اسمه. وكان الأسقف يلقنه له أمام المعمودية كلمة كلمة، وكان على المعمَّد أن يردده بعد ذلك من الذاكرة، فلم يكن يُسمح له إطلاقاً أن يكتبه على ورقة أو يلقِّنه لأحد آخر، إنما ينقشه في قلبه فقط.

وفي هذا يعلِّم القديس كيرلس الأورشليمي المعمَّد الحديث قائلاً:
[إذا سألك موعوظ (أي لم يصر بعد مؤمناً): ماذا يقول لك المعلمون (في الكنيسة)؟ فلا تخبره، ولا أحداً من الخارج، بشيء قط. لأننا إنما نسلِّمك الآن «سراً» الذي هو رجاء الحياة الآتية.

أحرس السر من أجل هيبة الله الذي يعطي الجزاء ولا تسمح لأحد قط يقول: ماذا يضيرك إذا عرفتُ أنا أيضاً هذا ــ لأن الموعوظ إذا سمعه لا يفهمه ويحسبه عثرة و يتهكم عليه، والمؤمن إذا باح به يُدان كخائن! وهاأنت الآن واقف على حافة الأمان فاحترس! وصلِّ حتى لا يفلت منك قولٌ في الخارج، ليس لأن ما تقوله مُخزٍ أو لا يستحق القول، ولكن لأن أذن السامع ــ في الخارج ــ لا تستحق قبوله. فأنت كنت موعوظاً سابقاً ولم نخبرك بما عُلِّمته الآن وما هو حادث أمامك. والآن إذ قد أدركت بالإختبار مقدار سمو هذه التعاليم فأنت ستدرك أن الموعوظين لا يليقون لسماعها.](٢٠)

(20) Pro. Cat., 12, 17.

وكذلك يعلّم القديس كيرلس في هذا الموضوع قائلاً:

[هذه الأسرار التي تشرحها الكنيسة الآن لكم، أنتم الذين عبرتم مرحلة الموعوظين، فليكن في علمكم أن ليس للكنيسة عادة أن تشرحها للوثنيين، فالوثني لا يليق أن نخبره أو نشرح له الأسرار المختصة بالآب والإبن والروح القدس. وحتى أمام الموعوظين لا ينبغي أن نتكلم عن الأسرار علانية، ففي مثل هذه المواضيع نتكلم بطريقة مستورة حتى لا يفهم إلا المؤمنون فقط، أما الذين ليست لهم دراية فلا ينالهم عثرة.](٢١)

و يوضح هذه الحقيقة في الغرب أيضاً كل من القديس أغسطينوس والمؤرخ روفينوس مشددين أنه لا ينبغي حتى كتابة قانون الإيمان على الورق. ولأجل هذا نجد أن المؤرخ سوزومين يمتنع عن تسجيل قانون الإيمان النيقاوي في كتابه، مشيراً [أنه قاصر فقط على المستنيرين (المؤمنين) وعلى الذين تقبّلوا سر المسحة في العماد إذ هم وحدهم لهم الحق أن يقولوه أو يسمعوه.](٢٢)

والقديس باسيليوس يعود فيقرر مرة أخرى أن هذه الممارسات السرية بقوانينها المحفوظة واصطلاحاتها ليست شيئاً جديداً على نصوص الإيمان التي في الأسفار المقدسة، غير أنها تضع هذه النصوص في بؤرة القوة والحركة!

وقد استعان القديس باسيليوس في التحقيق اللاهوتي الذي أجراه عن الروح القدس بالتقليد غير المكتوب الممارَس عملياً في المعمودية بصفته دعامة الإيمان الحي في الكنيسة موضحاً أنه بدون هذا الإيمان الممارس عملياً يمتنع فهم حقيقة قصد الأسفار المقدسة. ليس كأن التقليد الشفاهي شهادة أخرى غير الإنجيل، ولكنه

(21) Ibid., VI, 29.
(22) Hist. Ecc., 1,20.

شهادة حية. فالإنجيل يبقى بعد التقليد المعيار الأعلى للتعليم، ولكن الإنجيل لا يمكن أن يعطينا مواصفات كاملة لممارسة الأسرار المسلَّمة إلينا بل التقليد.

كذلك لا غنى إطلاقاً عن الأسرار العملية لفهم الإنجيل، كما يقول القديس باسيليوس، فالكتاب المقدس سر بحد ذاته «سر تدبير الله لخلاص الإنسان»، وهو سر عميق لا يُستقصى، لذلك فالكتاب المقدس كتاب ملهَم بكافة أسفاره، هو كتاب مكتوب بوحي الروح القدس. لذلك أصبح من الضرورة الحتمية لكي يكون شرحه وفهمه حسب القصد الذي فيه، أن يكون بالروح أيضاً و بالإلهام أي يحتاج إلى موهبة للتمييز والإستنارة: [لأن وزن الكلمات والحكم عليها ينبغي أن يستعد له الإنسان بنفس الإستعداد الذي جازه المؤلف. وإني أرى أن نطق الروح القدس هناك استحالة لفحص أعماق مقاصده من كلمته إلا للذين عندهم الروح الذي يهبهم الفهم والتمييز.](٢٣)

أما الروح فيعطَى في الأسرار التي تقدمها الكنيسة؛ أي أن الكتاب المقدس ينبغي أن يُقرأ في نور الإيمان ومن داخل الجماعة المؤمنة التي يخاطبها الروح، أي من داخل الكنيسة.

لهذا، فإن القديس باسيليوس يرى أن التقليد بصفته قانوناً حياً للإيمان مُمتداً عبر الكنيسة كلها يُعتبر مرشداً ورفيقاً لا يُجارَى في فهم وفحص الكتاب المقدس.

وهكذا يسير القديس باسيليوس على نفس خطوات القديس إيرينيئوس والقديس أثناسيوس الرسولي، و يشترك معه في ذلك أيضاً القديس أغسطينوس والقديس چيروم بكل إخلاص. (٢٤)

---

(23) Epist. 204.
(24) In Galat. 1.1.

وهكذا يستحيل فصل الأسفار المقدسة عن الكنيسة [لأن في الكنيسة قد تجمع كل الحق عبر الرسل .] **القديس إيرينيئوس** (٢٥)

والحقيقة إن الكتب المقدسة هي الوديعة العظمى المسلَّمة من الرسل، والكنيسة أيضاً هي الوديعة العظمى المسلَّمة من المسيح !! [خارج الكنيسة لا يوجد إنجيل إلهي .] **جيروم** . ولكن يوجد بديل بشري واجتهاد وذكاء .

ونفس هذا الكلام يقوله أيضاً القديس أغسطينوس بفم المؤمن البسيط : [فأنا لا أؤمن بالإنجيل إلا كما يوجهه سلطان الكنيسة .]

وهذا يعني أنه ليس على المؤمن البسيط إلا أن يقبل الإنجيل كما تعلِّمه الكنيسة وحسب تفسيرها، كما أن عليه بالأكثر أن يلتجيء إلى الكنيسة إذا أُعثر في شيء أو دخل في مواجهة مع الخارجين عن الإيمان، لأن من الكنيسة استلم الإنجيل وبالكنيسة يفهمه .

الكنيسة لا تحتكر الإنجيل، ولكن تحتفظ بفهمه، كما علَّمه الرسل وحسب الروح القدس!

التقليد الكنسي مصدر حياة :

القديس أثناسيوس الرسولي في خطابه إلى القديس سيرابيون يقول :

[حسب الإيمان الرسولي المسلَّم إلينا بالتقليد من الآباء قدمتُ هذا التقليد دون أن أستحدث عليه شيئاً خارجياً من نفسي . فما تعلمته هو ما كتبته مطابقاً للأسفار المقدسة .] (٢٦)

---

(25) Adv. Hear. III. 4. 1.

(26) Serap. 1.33.

والإنجيل هو بمثابة عقل الكنيسة والتقليد حياتها، فالإثنان معاً هما لها مصدر الحق والحياة، فيما يختص بالإستعلان الإلهي الذي سجلته الأسفار المقدسة.

أما نسبة الأسفار المقدسة للتقليد فهي كنسبة الحق إلى معناه، أو كنسبة الإستعلان الإلهي وقبوله، أو كنسبة الإيمان الحي والحياة به.

الكنيسة تقوم وتُبنى على الأسفار المقدسة، ولكنها غير مُستعبدة أو مقتولة للحرف منه، بل حية بروح الكلمة فيه، لأنها تستمد معرفتها وحياتها من المسيح الذي هو هو الكلمة!

الكنيسة تفهم الإيمان الحي بالكتاب المقدس ولكنها تحيا الإيمان بالتقليد!

والإيمان والحياة وحدة واحدة متداخلة لا يمكن تجزئتها.

إن أول حركة للحياة أو أقل علامة على أن الإنسان قد أصبح حياً بالإيمان لله أو حياً بالمسيح أو حياً بالإنجيل، يستلمها الإنسان من داخل المعمودية!!

إن أول قطرة يشربها وأول لقمة يتناولها الإنسان من شراب الحياة السمائي أو خبز الحياة السمائي لقوام الحياة الإلهية الجديدة في الإنسان، يتناولها من داخل الإفخارستيا!!

إن أول اعتراف علني بالإيمان الحي الذي هو بمثابة نبضة الحياة الإلهية الأولى في الإنسان، يتممه الإنسان في المعمودية و يكمله في الإفخارستيا!!

إن أول عمل ينبثق عن الحياة الجديدة هو الصلاة والتسبيح باسم الثالوث = الذوكصا.

وبهذا تبرز معالم التقاليد الأصيلة كجواب حي لسؤال الإنجيل !!

فالإنجيل يسأل: «هل أنت مؤمن؟» — والمعمودية والإفخارستيا هي الإجابة.

والإنجيل يسأل: «هل أنت حي؟» — والصلاة والتسبيح للثالوث هما الإجابة!

بالمعمودية عُرف أول قانون للإيمان في الكنيسة كلها حينما كان يعلن المعمَّد إيمانه بالثالوث المقدس. و بالإفخارستيا عُرفت أول شهادة بموت الرب وآلامه وقيامته، وكُشف لأول مرة سر الفداء بكل معناه ومبناه، و بالإجتماع للعبادة والصلوات والتسابيح عُرف العهد الجديد وظهر ككتاب للحياة الأبدية، حيث كان يُقرأ الكتاب أولاً للتعبير عن العبادة وكصلاة وتسبيح وحياة!!

القديس أثناسيوس يكشف بغاية الوضوح أن أساس الكنيسة يتوقف على ممارسة قانون الإيمان عملياً في المعمودية حسب التقليد المسلَّم للرسل من الرب نفسه، وهو في إحدى رسائله عن الروح القدس يقول:

[لقد أمر الرب الرسل أن يضعوا هذا الأساس للكنيسة قائلاً لهم عمِّدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس... وهكذا ذهب الرسل وعملوا وهكذا علَّموا.](٢٧)

فإن كانت الكنيسة بجملتها هي «عمود الحق وقاعدته»، كما يقول القديس بولس الرسول، بما تحويه من أسرار الحياة الأبدية، فإن أساس الكنيسة الأول الذي سلمه الرب للتلاميذ وقامت عليه الكنيسة بالفعل منذ البدء هو «عمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس» الذي يقول عنه القديس أثناسيوس الرسولي في

(27) C.R.B., Shapland., P. 132-134.

إحدى رسائله للقديس الأسقف سيرابيون (تلميذ أنبا أنطونيوس) : [وعلينا أن نعتبر جداً **هذا التقليد** الذي هو **تعليم وإيمان** الكنيسة الجامعة الذي منذ البدء، الذي **أعطاه الرب**، وكرز به الرسل، وحفظه الآباء، والذي عليه تأسست الكنيسة وقامت.](٢٨)

وهنا يتضح أن تعليم الرسل، الذي هو التقليد في جملته، يُبنى أصلاً على «قانون الإيمان»، وقانون الإيمان الأول الذي انبثق منه كافة التعريفات الإيمانية على مدى العصور والمجامع هو «قانون إيمان المعمودية» الذي لا يمكن أن يأخذ قيمته إلا أثناء العماد بالنطق القلبي والعلني.

وكأنما الإنجيل كله يتوقف على قانون الإيمان، وقانون الإيمان لا يكون حياً صحيحاً إلا في المعمودية. ومن هنا يسطع التقليد كنور وهاج يضيء الإنجيل كله.

وأما في سر الإفخارستيا، فيجد قانون الإيمان ـــ الذي نطق به في العماد ـــ تعبيره العملي، فإن كان الإنسان يولد بالإيمان في المعمودية، فهو يحيا بمقتضى هذا الإيمان في الإفخارستيا؛ و يكرز به يوماً بعد يوم بشهادة واعتراف: «كل مرة تأكلون من هذا الخبز وتشربون من هذه الكأس **تبشرون** بموتي **وتعترفون** بقيامتي **وتذكرونني** إلى أن أجيء.» (القداس الإلهي)

ومن هذه الأفعال الثلاثة «تبشِّرون» و«تعترفون» و«تذكرون» المختصة بحقائق الموت والقيامة والمجيء الثاني للرب تقوم أركان قانون الإيمان الكامل الذي شرحه مجمع نيقية وما بعده. أي أن ليتورجية الإفخارستيا وبقية الأسرار هي، في الواقع، التي حددت معالم قانون الإيمان الذي تؤمن به الكنيسة وتعيش عليه وتكرز به.

(28) Ad. Serap., 1.28.

إذن، فخدمة العماد مع ليتورچية الإفخارستيا اللتان تكوّنان معاً قلب التقليد الرسولي، هما التحقيق العملي لقانون الإيمان. أو بتعبير حقيقي، هما الإنجيل نفسه حياً ومُعاشاً.

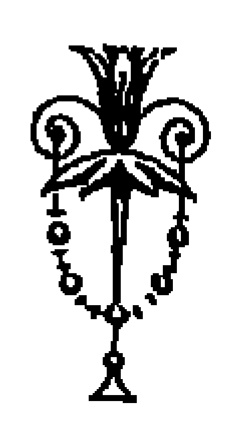
كذلك نجد أن خدمة هذه الأسرار المقدسة داخل الكنيسة هي هي العبادة، وهي مصدر الصلاة والتسبيح والشكر كل يوم وفي كل زمان ومكان.

فالعبادة بالصلاة والشكر والتسبيح هي بدورها أيضاً استعلان حي للإيمان القلبي، أو هي المظهر الحي لجوهر قانون الإيمان الذي تقبّلناه في المعمودية وعشناه في الإفخارستيا.

ومن داخل العبادة والصلاة والشكر والتسبيح داخل الكنيسة يبرز الإنجيل و بقية أسفار العهد القديم، كدليل للعبادة ومادة للصلاة والشكر وأداة للتسبيح!!

فالإنجيل ذاع أول ما ذاع عن طريق القراءة (قداس الموعوظين = قداس الكلمة) كعبادة تلازم خدمة الأسرار — أي من داخل التقليد.

ولا يزال الإنجيل يحتاج إلى كنيسة حارة في عبادتها حتى يُسمع جيداً بالصلاة، كما يحتاج إلى أسرار فعالة لكي يُعاش كقوة تلازم الإنسان وتقوِّم خطواته. «وأُعرِّفكم أيها الإخوة بالإنجيل الذي بشرتكم به وقبلتموه وتقومون فيه وبه أيضاً تخلصون.» (١ كو١٥: ١و٢)



الفصل الرابع

الخطوات التي مرَّ بها التقليد التعليمي

□□□

التقليد التعليمي يشمل شرح وتوضيح الإيمان بكافة الوسائل من وعظ وتلمذة وكتابة وتفسير ومحاجاة ودفاع، وقد سار فيه الآباء على نهج الرسل وحسب المبادىء الإيمانية التي تسلموها.

ولكن التقليد التعليمي جاز في الواقع مرحلتين مهمتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الكرازة الفردية[1] κήρυγμα

وهي المرحلة التي لم يكن فيها للتقليد الرسولي المسلَّم بالشفاه صورة محددة للتعليم أو نصوص محفوظة، فكان كل واحد من الآباء يعلِّم عن الثالوث القدوس ـــ سواء عن الآب أو الإبن أو الروح القدس ـــ في الإطار التقليدي، معتمداً على الإلهام الخاص والأسفار المقدسة. وقد استغرقت هذه المرحلة منذ العصر الرسولي حتى أول مجمع مسكوني قانوني أي مجمع نيقية سنة ٣٢٥م.

---

(١) كلمة كرازة كما جاءت في الأصل اليوناني κηρυγμα وردت في الأماكن الآتية من الإنجيل: مت١٢: ٤١، لو١١: ٣٢ بمعنى المناداة، وفي رو١٦: ٢٥، ١ كو١: ٢١، ١ كو٢: ٤، ١ كو١٥: ١٤، ٢ تي٤: ١٧، تيطس ١: ٣ بمعنى كرازة: وهي تفيد هنا الوعظ والتفسير والمناداة الحرة حسب الحق وحسب الإنجيل إنما اعتمادها الكلي هو على النعمة لأن الكارز مرسل.

المرحلة الثانية: مرحلة تحديد صورة التعليم بأحكام إجماعية في مجامع مسكونية، **فأصبحت عقيدة ثابتة ذات سلطان كنسي =** ΔΟΓΜΑ [2]

وبهذه المرحلة أصبح التقليد الرسولي واضحاً على أعلى مستوى إلهامي، ومشاعاً على الكنيسة كلها، بدل أن كان مقصوراً على ذوي الإلهام.

كما أصبح التقليد التعليمي في الكنيسة ذا قاعدة إيمانية مقررة ومكتوبة، هي نفسها التقليد الرسولي الأول إنما مفسَّراً وموضَّحاً، وفي نفس الوقت ذا سلطان إلهي كنسي قاطع لا يستطيع أي معلم مهما كان ذا إلهام أن يشذ عنها.

وقد استغرقت هذه المرحلة بالنسبة لكنيستنا المدة من مجمع نيقية حتى مجمع أفسس أي من سنة ٣٢٥ إلى سنة ٤٣١ م، وهي المدة التي عبر فيها التقليد الرسولي على ثلاثة مجامع مسكونية، حتى استقر توضيحه وصار قانوناً للإيمان بصيغته الحالية التي نؤمن ونعلم بها للآن.

وبنهاية عصر المجامع وتقنين صورة التعليم الصحيح ووضع أساس عقائدي سليم للكرازة حسب التقليد، صارت **الكرازة والعقيدة** في الكنيسة وحدة واحدة **ومنطلقاً واحداً للتعليم الأرثوذكسي، بل وللحياة المسيحية في دقائقها وفي تطبيقها للوصايا**، لذلك لا يمكن متابعة التعليم الأرثوذكسي ولا متابعة الحياة المسيحية حسب الإنجيل إلا إذا استوعبنا التقليد الرسولي في مراحله التي عبر فيها، وتقبلنا ما استقر عليه من تعليم ثابت ذا عقيدة راسخة، وعشنا أسراره.

---

(٢) الدُّجما Δόγμα جاءت بالمعاني الآتية: لو٢: ١ = **أمر**، أع١٦: ٤ = **قضايا**، أع١٧: ٧ = **أحكام**، أف٢: ١٥ = **فرائض**، كو٢: ١٤ = **صك**، ويمكن إجمال معناها كالآتي: أحكام مجمعية قانونية Legitimate Synodical Decrees وفيما يختص بالإيمان فهي تعني عقيدة.

النواة الأولى التي قامت عليها الكرازة هي: قانون الإيمان:

النواة الأولى التي قام عليها التقليد التعليمي ثم التفسيري هي «**قانون الإيمان**»، الذي يحوي استعلان الثالوث القدوس الذي قدمه المسيح لتلاميذه ليكون صيغة الإيمان الذي على أساسه يتم بالعماد ميلاد الإنسان من فوق بسر يفوق عقل الإنسان، حسب توضيح الرب في يوحنا ٣.

ومن النص الإنجيلي يبدو حسب الظاهر أن العماد كان يتم حينما كان الرسول أو الأسقف يعمد أي إنسان **باسم الآب والإبن والروح القدس** «عمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس» (مت٢٨: ١٩) «من آمن واعتمد خلص» (مر١٦: ١٦). و يصير في الحال عضواً في الكنيسة. ولكن على المستوى العملي كان يتحتم قبل ذلك أن يكون المعمَّد قد آمن بالآب والإبن والروح القدس، وكان عليه أيضاً أن يتلو جهاراً أمام الكنيسة القانون الخاص بالإيمان الذي استلمته الكنيسة من الرسل وظل معمولاً به تحت آسم «قانون الإيمان الرسولي» إلى أن دخل مجمع نيقية ثم القسطنطينية وكمل تفسيره بأكثر توضيح فصار «قانون الإيمان النيقاوي أو الأرثوذكسي».

وإليك مقارنة بين الصورتين: الأولى للقانون الرسولي والثانية للقانون النيقاوي القسطنطيني:

قانون الرسل:	**القانون النيقاوي القسطنطيني:**
(أنظر إيرينيئوس Ad. Haer. 10,1)	
أؤمن:	أؤمن:
١ ــ بالله الآب الضابط الكل خالق السماء والأرض.	١ ــ بإله واحد الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يُرى وما لا يُرى.

٢ ــ و بالمسيح يسوع آبنه الوحيد ربنا.	٢ ــ و برب واحد يسوع المسيح آبن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور. نور من نور، إله حق من إله حق. مولود غير مخلوق مساو للآب في الجوهر.
٣ ــ الذي حُبل به بالروح القدس وولد من العذراء مريم.	٣ ــ الذي به خلق كل شيء. الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن العذراء مريم وتأنس.
٤ ــ وتألم في عهد بيلاطس البُنطي وصُلب ومات وقُبر ونزل إلى الجحيم.	٤ ــ وصلب عنا على عهد بيلاطس البنطي وتألم وقُبر.
٥ و٦ ــ وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الله الآب الضابط الكل.	٥ ــ وفي اليوم الثالث قام حسب الكتب. ٦ ــ وصعد إلى السماء وجلس عن يمين الآب.
٧ ــ حيث سيأتي ليدين الأموات والأحياء.	٧ ــ وسيأتي أيضاً في مجده ليدين الأحياء والأموات الذي ليس لملكه انقضاء.
٨ ــ وأؤمن بالروح القدس.	٨ ــ وأؤمن بالروح القدس الرب ومعطي الحياة، المنبثق من الآب. نعبده ونمجده مع الآب والإبن الناطق في الأنبياء.

٩ ــ وبالكنيسة المقدسة الجامعة شركة القديسين.	٩ ــ وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية.
١٠ ــ وبمغفرة الخطايا.	١٠ ــ ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا.
١١ ــ وبقيامة الأجساد.	١١ ــ وننتظر قيامة الأموات.
١٢ ــ وبالحياة الأبدية آمين.	١٢ ــ وحياة الدهر الآتى. آمين.

ولكن لم يكن قانون الإيمان الرسولي مجرد منطوق إيمان، ولكنه كان إجراءً رسمياً كنسياً، فكان كوديعة إلهية لدى الرسل يتسلمها الأساقفة من بعدهم حتى يسلموها للمؤمنين في سر العماد، وكان من أخص خصائص الأسقف. أي أن **قانون الإيمان** كان مرتبطاً بالنظام الرسولي **الأسقفي**، وفي نفس الوقت مرتبطاً **بسر العماد**، ولا غنى لواحد عن الآخر.

وبنظرة فاحصة، نجد أن قانون الإيمان، مع النظام الرسولي الأسقفي، مع سر العماد يشكل سر المسيحية كله. وهذا هو المضمون الحقيقي الذي يشمله قانون الإيمان الرسولي بمفهومه العملي التقليدي الحي. وهذا ما جعل القديس إيرينيئوس يقول إنه يمكنه أن يتصور المسيحية بدون أسفار مكتوبة ولكنه لا يمكن أن يتصور المسيحية بدون تقليدها الحي(٣). وهذا ما جعل ترتليانوس يقول: [تعالَ الآن إن كنت تريد مزيداً من الإستفسار لمنفعة خلاصك، فاذهب إلى الكنيسة الرسولية التي لا تزال كراسي الرسل قائمة فيها... ما أسعد الكنيسة التي سكب فيها الرسل تعاليمهم كلها مع دمائهم.](٤)

---

(3) Ph. Schaff, op. cit. II, p. 526.

(4) Ibid.

ولكن لم يكن قانون الإيمان الرسولي مقصوراً على الجمل المختصرة فقط، لأنه وُضع بهذه الصيغة المختصرة كضرورة للحفظ وحتى يسهل تلقينه للمعمَّد، أما القانون الإيماني الرسولي حسب تداوله في الكنيسة فكان يشمل جماع التعليم كله المختص بالإيمان بالله الآب و بالإبن يسوع المسيح والروح القدس، إنما على الأساس الذي تشمله الجمل المختصرة التي في قانون العماد.

وقد ازدادت الإيضاحات والإضافات على الأصول الأولى للقانون على مدى الزمن لمواجهة الهراطقة أولاً بأول، لذلك نجد الصيغ العامة للقانون الرسولي المستخدم في الكنائس قبل مجمع نيقية يختلف في شكله العام وإيضاحاته للحقائق الأولى بالنسبة للكنائس.

ففي كنائس الشرق التي واجهت من الهراطقة عواصف أكثر، بدأ قانون الإيمان يتضخم و يزداد تحديداً ودقة وعمقاً وروحانية أكثرمن قانون الإيمان في الغرب. ثم وفي كنائس الشرق أيضاً بدأ قانون الإيمان (من حيث تفاسيره التي يتضمنها وليس من حيث جوهره) يختلف في صورته الأخيرة من كنيسة لكنيسة بالنسبة لتوطن البدع وعنف المقاومات الفلسفية، لذلك نجد إيرينيئوس يشكل تفسيراً للقانون في فرنسا (١٨٠م)، وترتليان يشكل تفسيراً آخر في شمال أفريقيا (٢٠٠م)، و يضيف عليه كبريانوس أيضاً في شمال أفريقيا (٢٥٠م)، وأوريجانس في الإسكندرية (٢٥٠م)، وغريغوريوس صانع العجائب في قيصرية الجديدة (٢٧٠م)، و يوسابيوس في قيصرية (٣٢٥م)، وكيرلس في أورشليم (٣٥٠م)، وإبيفانيوس في قبرص، وروفينوس في أكويلايا (٣٩٠م)، وذلك كله تحت ضغط المقاومات من الهراطقة. ولكن بالرغم من هذه الإختلافات في التفسيرفكلها يكمل بعضها البعض، والأصل الذي استلمته الكنيسة من الرسل ثابت في الجميع.

وجاء مجمع نيقية (٣٢٥م) ومن بعده مجمع القسطنطينية (٣٨١م) ثم مجمع أفسس (٤٣١م)، وصاغت شرحاً واحداً مختصراً ومفصلاً ودقيقاً غاية الدقة ليحل محل جميع التفسيرات كلها في الشرق والغرب، ولكن لا يختلف ولا قيد شعرة عن أصل القانون الرسولي الأول المسلَّم من الرسل. غير أن كنيسة روما ظلت تحتفظ بقانون الرسل كما هو حتى اليوم على أنها تتلو أحياناً قانون نيقية وقانون القديس أثناسيوس.

ولكن يلزمنا أن نلقي نظرة فاحصة على قانون الرسل لنتحقق أنه يحوي فعلاً قوة الإلهام والتقرير الإلهي، فهو على مستوى من الإلهام والرصانة مع أقوى ما جاء في الأسفار المقدسة، ولا يمكن وصفه أنه مجرد تأليف فردي أو جماعي، فهو من صنع الروح القدس الناطق في الأنبياء فعلاً، وأنبياؤنا في العهد الجديد هم الرسل بلا نزاع.

فقانون الإيمان يشمل رؤيا الأسفار كلها مجتمعة، فهو يبتدىء بالآب الخالق؛ وينتهي بالقيامة وتكميل كل شيء في حياة الدهر الآتي؛ ويتركز في الوسط على الرب يسوع والخلاص الذي أكمله.

وقانون الإيمان، وإن سُمي قانوناً، فهو لا يشمل جُملاً جامدة عقائدية أو أوصافاً لاهوتية مجردة، بل هو يطلق معاني حية من مصدر انبعاثها الحقيقي بلغة المؤمن البسيط الذي ينطق وهو ناظر إلى السماء! فهو يعطينا صورة حية للثالوث الأقدس بالنسبة لحياتنا التي نعيشها والتي نرجوها، وكأنما الثالوث في قانون الإيمان يحيط بنا من كل جهة ثم يحتضننا في رجاء ما هو آتٍ...

وإن قانون الرسل على قدر بساطته التي يمكن أن يحيط بها المعمَّد المبتدىء في الإيمان فهو يشمل العمق الذي يكفي ليملأ قلب وفكر وروح كل إنسان إلى أعلى

درجة للرؤيا وفحص الإلهيات. وليس أدل على ذلك من أن قانون الإيمان هذا لا تزال تستخدمه كافة كنائس العالم على مدى الأجيال كلها بالرغم مما بينها من انقسامات فكرية ولاهوتية وعقائدية، لأن الإيمان الذي يحويه أعمق من أي انقسام، والعمق الروحي الذي يستمده من الثالوث الأقدس كافٍ أن يسمو فوق كل نزاع شكلي.

فهذا القانون يشمل قوة الإيمان في عتقه الذي لن يشيخ، و يبرهن على أن الإيمان بالله كثالوث قدوس يفوق في جِدَّته عقل الإنسان مهما تجدد، و يطوي كل منطق تحت خضوع سلطانه.

لذلك، فالكنيسة الأرثوذكسية تُدعى حسب التقليد «**كنيسة الثالوث**»، لأنه يستحيل عليك أن تسمع فيها أي صلاة أو خدمة أو عبادة تبتدىء بدون تمجيد الثالوث القدوس «باسم الآب والإبن والروح القدس»، وقد تسلمت أيضاً أن الخدمة يتحتم أن تنتهي ببركة الثالوث «المجد للآب والإبن والروح القدس الآن وكل أوان وإلى دهر الدهور آمين»، حسب التقليد الرسولي: «نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس مع جميعكم آمين.» (٢ كو١٣: ١٤)

لذلك.فالثالوث يحوي أعماقاً عملية تصلح أن تكون منطلقاً للتأمل والتفسير بل والتسبيح والشكر، وقد ظل الثالوث، وسيظل، موضوع تأملات الفلاسفة والمتنسكين والمتصوفين والعاشقين لله منذ يوستين وإيرينيئوس وترتوليان وأوريجين وأثناسيوس وأغسطينوس إلى نهاية الدهور.

وجنباً إلى جنب، يقف الإيمان بالثالوث كاعتراف مهيب رسمي في المعمودية والإفخارستيا مع الفرح والتسبيح للثالوث في كل مناسبة، وذلك في الذوكصا الكنسية التي تتخلل كل شيء!

وفي استشهاد القديس پوليكارپ يمكنك أن تعرف المكانة القوية التي لعقيدة الثالوث القدوس بل وفهمه وتفسيره عند الكنيسة في الجيل الأول بعد الرسل مباشرة، وليست الأهمية التي نعلق عليها هنا هي في سرد كلمات پوليكارپ، بل في المناسبة التي نطق فيها إيمانه بالثالوث إذ كانت آخر كلمات تفوّه بها أمام الوالي وجمهور الناس والنار تشتعل فيه! وهذه هي الصلاة:

[أيها الرب الإله الضابط الكل، أبو المبارك يسوع المسيح ابنك المحبوب، الذي بواسطته عرفناك معرفة كاملة، يا إله الملائكة والقوات والخليقة كلها وكل جماعة الأبرار الذين يعيشون في حضرتك، أباركك لأنك اعتبرتني مستحقاً اليوم وفي هذه الساعة أن آخذ نصيبي في عداد شهدائك وفي كأس مسيحك للقيامة في الحياة الأبدية بنفسي وجسدي، في عدم الموت الذي للروح القدس! من أجل هذا، وفي كل شيء، أنا أُسبّحك وأُباركك وأُمجدك بواسطة يسوع المسيح الكاهن السمائي الأبدي الأعظم، ابنك المحبوب، الذي له المجد معك ومع الروح القدس الآن وإلى كل الدهور الآتية. آمين](٥)

والقديس اكليمندس أسقف روما تلميذ القديسين بولس و بطرس الرسولين يقول: [الله، والرب يسوع المسيح والروح القدس هو موضوع إيمان ورجاء المختارين.](٦)

والقديس إيرينيئوس يرى أن علاقة الثالوث تُستعلن فينا نحن فيقول: [إن الشيوخ وتلاميذ الرسل يؤكدون أن هذا هو التسلسل والنظام الذي يتبعه المخلصون، فهم يتقدمون بخطوات على هذا النوع و يرتفعون بالروح القدس إلى الإبن، و بالإبن

(5) Earl. Chr. Fath. I.154.
(6) Ph. Schaff., op. cit. II, 560.

إلى الآب.](٧)

ومن بعد إيرينيئوس يأتي الآباء العظام، جيلاً بعد جيل، يزيدون أكثر فأكثر على ضوء الأسفار المقدسة، العمق الهائل الذي يحويه الثالوث الأقدس سواء من جهة العلاقة التي يرتبط بها داخلياً في ذاته أو من جهة عمله في الخليقة والفداء والتقديس.

والثالوث، بمفهومه المسيحي، يوضح الملء والخصب والحياة التي في الوحدانية الإلهية، فعقيدة الثالوث هي أول ما يفصل الإيمان المسيحي عن الإيمان اليهودي وعن العقائد الوثنية. فاليهودية تؤمن بوحدانية الله المجردة، والوثنية تؤمن بتعدد الآلهة وانقسامها بلا عدد؛ أما في المسيحية فالله يحوي الأُبوة بكل حبها وحنوها، والبُنوة بكل طاعتها وبذلها، والحياة بكل فاعليتها وجدّتها. لذلك يُعتبر الثالوث المعيار الرمزي للإيمان المسيحي الذي يحوي حقائق التعليم الإيماني للمسيحية كلها. وأيّة مهاجمة للثالوث من أي جهة من جهاته الثلاث أو من حيث علاقة الآب بالإبن بالروح القدس تنتهي حتماً إلى زعزعة الإيمان المسيحي كله. لذلك أصبحت حساسية الكنيسة في رعايتها وحفظها ودفاعها عن عقيدة الثالوث تساوي وجودها وحياتها!

وبحسب عقيدة الثالوث، تؤمن الكنيسة أن الله هو خالقنا، وفادينا، ومقدسنا، ثالوث عمل متميز ومتخصص، وكل عمل من هذه الأعمال الثلاثة متصل بالآخر اتصالاً جوهرياً.

وقد سادت هذه العقيدة وتحكمت في كل الإيمان في كل عصور الكنيسة كتقليد

(7) Ad. Haer. V. 36.2.

رسولي راسخ منذ أيام الرسل حتى يومنا هذا، غير أنها تحددت قانونياً كعقيدة كنسية في مجمع نيقية وما بعده. وقد بدأت كعقيدة إيمان عملي تمارَس بالمعمودية وتُتلى في كل إفخارستيا، ولكنها صارت بعد ذلك موضوع دراسة وتأمل وشرح وتفسير، لملء الحياة الفكرية أيضاً.

ولكن ينبغي أن ندرك أن عقيدة الثالوث استُعلنت استعلاناً في **تجسد الإبن، وقيامته، وفي يوم الخمسين**، حيث انكشف السر المغلق منذ الدهور وتعرفنا على ٱبن الله وعلى روح الله القدوس تعرُّفاً عملياً، وليس فكرياً أو فلسفياً، يقول عنه القديس يوحنا الرسول: «من جهة كلمة الحياة، فإن الحياة أُظهرت، وقد رأينا ونشهد ونخبركم.» (١يو١: ٢)

فالثالوث ليس من استقصاء فكر الإنسان التأملي الميتافيزيقي أو الفلسفي المجرد، ولكنه استعلان إلهي تحقق على المستوى العملي، فقد استُعلن لنا على كل المستويات الفكرية والحسية والروحية معاً بسبب السماح لنا بالدخول في شركة واقعية مع «الآب والإبن والروح القدس»، كما يقول القديس يوحنا أيضاً: **«أما شركتنا نحن فهي مع الآب والإبن» وطبعاً** «بواسطة الروح القدس!».

والثالوث استُعلن لنا من جهة الله نفسه لأنه هو الذي ابتدأ في كشف أحشاء رحمته لنا في ٱبنه الذي أظهره للعالم: «إن الله كان في المسيح مُصالحاً العالم لنفسه» (٢كو٥: ١٩)، لذلك يقول القديس يوحنا الرسول: «كل من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً» (١يو٢: ٢٣)، لأن الإبن أصبح وسيط صلح ووسيط إتحاد لا بديل له على الإطلاق، و يوحنا المعمدان يقول أيضاً: «إن الذي لا يؤمن بالإبن لن يرى حياة بل يمكث عليه غضب الله» (يو٣: ٣٦)، لأن بواسطة الإبن ننال الروح القدس مصدر الحياة.

إذن، ففي الثالوث قد أُعلنت لنا رحمة الله ومصالحته، وانفتح لنا باب الحياة الأبدية!! أي أن الثالوث هو قاعدة الإيمان المسيحي الحي بحسب ما عمل الله، فالله كشف لنا سر الثالوث الذي فيه، ليس على مستوى الفكر بل بالعمل الذي عمله لنا في الخلقة ثم الفداء ثم التقديس.



الفصل الخامس

الكرازة والتفسير التقليدي للكتب المقدسة

□□□

بكتابة الأسفار المقدسة نشأت في الحال ضرورة تفسيرها وشرحها شرحاً كاملاً صحيحاً بالفكر والإحساس الرسولي اللذين بهما كُتبت الأسفار المقدسة .

وإنها ، في الحقيقة ، هبة عظمى وثمينة أن تحصل الكنيسة على تفسير تعليمي للأسفار المقدسة مصدره الرسل أنفسهم !

فوجود شرح وتفسير مع الأسفار المقدسة من نفس المصدر، جعل الإيمان المسيحي منذ البدء وحدة متكاملة .

ليس أن التقليد التفسيري أضاف شيئاً جديداً على ما أُعلن في الأسفار المقدسة ، ولكنه قد أمدها بالقرينة الحية وأبرزها على الواقع المدرك ، فأوضح مشيئة الله تماماً وجعل قصد الرّوح القدس في متناول الإدراك العادي . حتى أصبحت الأسفار المقدسة مع التقليد التفسيري البسيط وحدة واحدة منسجمة ، [فالحق يظل وحدة كاملة منسجمة .](1)

ووظيفة التقليد التفسيري هي أن يجعل الأسفار المقدسة ليست مجرد مبادىء نتناقلها عن الأجيال السالفة ، بل حياة في الإيمان ممتدة من الأول حتى النهاية .

---

(1) Iren., Ad. Haer. II, 27, 1.

فصوت المسيح في الأسفار المقدسة لا يمكن أن نسمعه بوضوح إلا إذا دعمه الشرح التفسيري حسب الإيمان الحق، كما عاشه وآمن به الرسل أنفسهم وعلى ضوء خبرة الكنيسة عملياً، وليس كما يتوهمه العقل منفرداً عن الكنيسة ومهملاً شهادة الذين سمعوه وتحققوه بأنفسهم.

كما أن الأسفار المقدسة بدون شرح توضيحي وتفسير، لا تمثل الإيمان الصحيح ولا تنقل صوت المسيح، وشرح الأسفار المقدسة شرحاً صحيحاً لا يمكن أن يكون إلا إذا قام على معناها الصحيح، والمعنى الصحيح لها لابد أن يطابق الواقع، والواقع الحي للأسفار هو المسيح أولاً وهو الرسل وهو الكنيسة التي عاشت بالإنجيل ألفي سنة، وهذا هو التقليد! لأن المسيحية في أساسها ليست مبادىء وعقائد، بل حياة. فهي الخليقة الجديدة التي ظهرت في العالم بشهادة أخلاقها وسلوكها وقوة نصرتها على العالم والخطيئة، وهي ظهرت، أول ما ظهرت، منبثقة من شخص ربنا يسوع المسيح، وامتدت بالكلمة والروح لتشمل جنس الإنسان وترفعه إلى مستوى الحياة الأبدية مع الله.

والمسيحية كما تُلتمس في الجماعة، تُلتمس بجملتها أيضاً في الفرد الواحد. فالإنسان المسيحي يستوعب كل الحق إنما بالقدر الذي تسعفه به إمكانياته المحدودة.

والمسيحية تأتي إلى الفرد كدعوة للحياة الجديدة، كضرورة مُلحّة للتوبة والندامة، كرغبة وكشهوة للقداسة والتطهير والإغتسال في دم المسيح أكثر منها كدعوة للمعرفة والتبحُّر في فحص اللاهوت، وإن كانت لا تُعدَم هذه أيضاً في الطريق كهبة من الله نفسه وليس كواجب يلتزمه الإنسان.

فالتقليد الرسولي كان يلتزم من ذاته بنقل حياة المسيح لكل فرد، بطولها وعرضها وعمقها وارتفاعها «... الذي هو المسيح فيكم رجاء المجد، الذي ننادي به

منذرين كل إنسان ومعلمين كل إنسان بكل حكمة لكي نُحضر كل إنسان كاملاً في المسيح يسوع.» (كو١: ٢٧و٢٨)

ولكن هذه الحياة الجديدة نفسها، بل هذه الندامة والتوبة، بل هذه القداسة والتطهير بدم المسيح، هي قائمة على أصول ومبادىء ومعرفة الحق. لأن المسيح يسمي نفسه «الطريق والحق والحياة» (يو١٤: ٦)، أي أن فيه مذخراً لنا كافة الأصول التي إذا استُعلنَّاها، أدركنا قصد المسيح ونلنا الصلات التي يمكن أن تربطنا بالله وتخلصنا.

إنما هذه الأصول والمبادىء والمعرفة المستعلنة لنا في المسيح لا تقوم على أسلوب علمي منطقي ونظريات جافة مجردة، كما إنها لا تقوم على تأملات فردية شخصية هوجاء، بل هي «استعلان الحق» بنُطق روحي يكون من الله، وكقوة دائمة يشهد لها الروح إذ يكون لها سلطان على قلب كل من يسمعها، تُفهم بسهولة ولكن لا تبقى متعوِّقة في العقل، إذ لها قوة الفعل الآمر والتحريك القلبي، فهي معرفة نظرية وعملية معاً ومفهوماتها لها قدرة الفعل والحركة، بل والإقامة من الموت. فالعقل يتأثر بها، والإرادة في الحال تخضع لها، والضمير يتوبخ بشدة، والرجاء يسيطر، والحياة تسري. لأن هذه المعرفة هي بعينها نور الحياة الجديدة وقوة من قواتها، لأنها منبثقة من المسيح نفسه وتشدُّنا إليه، فهي نفخة المسيح، وهي الروح القدس الذي يتغلغل الطبيعة البشرية «خارقة إلى مفرق النفس والروح والمفاصل والمخاخ ومميزة أفكار القلب ونياته» (عب٤: ٢)، لتلقينا إلى طين التوبة ثم ترفعنا إلى رجاء المجد.

وعلينا دائماً أن نفرِّق بين المعرفة الآتية إلينا من الله والأسلوب الذي نحاول أن نصيغ به هذه المعرفة، فالمعرفة الأولى إلهية والثانية بشرية: المعرفة الأولى هي **الحق الإلهي اللانهائي**، والثانية هي **العقيدة بتحديداتها**.

والحق الإلهي يهب حياة، والعقيدة تحفظ هذا الحق.

ولكننا نخطىء في حق الإنجيل إذا ظننا أن أسفاره يعوزها الأسلوب المنطقي في كشف الحق، أو النظام التدرجي في المعرفة، أو أنها تخلو من الترتيب التعليمي. هذا افتئات على أسلوب المسيح والروح القدس المبدع، الذي سبق فخلق هذا الكون بنظامه وترتيبه ومنطقه وعلومه التي حيرت الإنسان واستنزفت كل طاقاته الفكرية وعبقرياته، ولا يزال واقفاً أمامها منذهلاً ومتحيراً، لأن مجرد رتابة الحق فيها أربكته.

أما الحقيقة عند الإنسان، وأما النظام والترتيب والمنطق والعقل والنظام المنهجي، فهذه كلها استمدها الإنسان من الحقائق الطبيعية، وأما الحقائق الطبيعية فقد خلقها الذي أوحى بالأسفار المقدسة ورتبها!

ولم يبقَ لدى الإنسان إلا أن يتعمق الأسفار المقدسة ليدرك فيها ومنها سر الحق كله وسر المنطق والنظام والمنهج.

هذا كان أول عمل اضطلع به الرسل بمساعدة الروح نفسه، وما قانون الإيمان البدائي الذي وضعه المسيح أولاً كقانون للعماد، الذي شرحه الرسل و بسّطوه للمؤمنين، وقرره مجمع نيقية بعد ذلك كما نؤمن به الآن، إلا أول تفسير لسر الخليقة الجديدة التي ينادي بها الإنجيل.

ففيه وُضع أساس الإيمان:

+ بالإله الواحد،

بالأبوة الضابطة للكل،

+ و بربوبية الإبن الوحيد و بتجسده وموته الفادي وقيامته المحيية وصعوده

الغالب وجلوسه الممجد مع الآب ومجيئه الثاني للحكم والدينونة ،

+ و بقيام الكنيسة المقدسة كشركة في الطبيعة الإلهية .

+ و بالمعمودية المجدِّدة لخلقة الإنسان بالروح .

+ و بسر الجسد والدم للغفران والحياة والتقديس .

+ و بأُلوهية الروح القدس المحيي العامل في التوبة والتغيير .

+ و برجاء تكميل كل شيء في الحياة الجديدة في الدهر الآتي بالقيامة بالجسد .

هذه كلها كانت في البذرة الأولى لقانون الإيمان ، كما علَّم به الرسل ، كما رأوه في المسيح ، وكما شاهدوه في القيامة والصعود ، وكما أعطاهم الروح القدس أن ينطقوا كاشفاً عن المسيح الذي فيهم وعن الملكوت والحياة المختبئة داخلهم وعن القوة العاملة معهم للكرازة .

و بشيء من التبصُّر ، نلمح العمق الهائل الذي في هذا القانون الإيماني الرسولي ، ونكتشف قوة وجبرؤوت الإستعلان الذي غطى وحكم كل الحقائق الواردة في الأسفار المقدسة . وليس هذا فقط ، بل وصار هذا القانون المعيار الذي يحكم على كل تعليم ، والمقياس الذي تُقاس به كافة الأعمال ، والأساس الذي لا يمكن أن يُبنى خارجه بناءٌ و يكون سليماً ! إذن ، فبدون هذا القانون عينه لا يمكن أن نتقدم لشرح الأسفار جميعاً !

هذا القانون الذي وضعه الآباء الرسل يشهد أن هؤلاء المطوَّبين كانوا يعيشون و يتحركون و يفهمون و يتكلمون بالحق وفي حدود الحق ، لا كأنهم مقيدون بالحق ، بل متسعون وممتدون بالحق إلى مالانهاية . فالرسائل التي كتبها الرسل بعد كتابتهم للإنجيل ، تشهد على مدى هذا الإتساع الذي كانوا يعيشون فيه و يفكرون به . فالروح القدس الذي كان يعمل فيهم لم يَسُدْ عليهم ليقيدهم بل ليقودهم ، ولا كان

يملي عليهم القول بل كان يجعل قولهم مطابقاً للحق، كمعاينين وشهود وليس كمتأملين أو حالمين.

ومن أعظم مآثر الروح القدس وأفضاله على الكنيسة والبشرية كلها، أنه أبقى على الإختلافات الطبيعية التي كانت تميز رسولاً عن رسول، سواء في الفكر أو التعبير أو المزاج أو البيئة. واختص الروح فقط بتوجيه هذه المميزات للتعبير عن الحق الواحد والمسيح الواحد. فقدمت الأسفار المقدسة لنا، بناءً على ذلك، ألواناً مبدعة للحق من كافة الزوايا الممكن أن يُرى بها هذا الحق! فأصبح التعمق في معرفة المسيح والتقرُّب إليه بالروح والإستعلان شيئاً لا ينتهي، شيئاً يفوق إمكانيات وقدرة أي إنسان بمفرده، مهما أوتي من قدرة واستعلان.

وهكذا نرى أن السبعة والعشرين سفراً التي للعهد الجديد، ومعها التقليد الرسولي بغناه ووفرته، ولو أنها تحمل حقاً واحداً منسجماً غاية الإنسجام لمسيح واحد فيه كل ملء اللاهوت وله كل سلطان مما في السماء وما على الأرض، إلا أنها تحمل لنا أعماقاً لهذا الحق متعددة ذات مميزات رسولية وطابع بشري يتناسب مع كل عمق وكل فكر وكل بيئة وكل مزاج وكل موهبة، شيء لن ينتهي ولا يمكن أن يُستقصى إلا بمجيء المسيح نفسه.

والقديس إيرينيئوس أول من اكتشف طابع الإنجيل ذا الحق الواحد المتعدد الأعماق، فسماه «الإنجيل ذو الأربعة الأوجه» Εὐαγγέλιον τετράμορφον لأنه يحمل أربع شهادات لأربعة أوجه رسولية: متى، ومرقس، ولوقا، و يوحنا، حيث يشترك في متى يعقوب أيضاً، و يشترك في مرقس بطرس أيضاً و يشترك في لوقا بولس أيضاً.

فعندنا في الأناجيل والرسائل و بالتالي في التقليد الشفاهي والتعليم والتفسير أربعة أوجه رسولية متميزة غاية التمايز. ومبدئياً، فإن منشأ هذا التمايز، في الأساس،

كان قبول المسيحية على صعيدين متباينين أشد التباين: الصعيد اليهودي، والصعيد الأممي الوثني؛ فنشأت مسيحية على أصل يهودي ومسيحية على أصل أممي. وقد تكون لكل صعيد تيارات عميقة وطابع مميز صبغ كل التعاليم والأفكار والمبادىء والممارسات في العبادة على مدى العصر الرسولي بأكمله إلى أن ذاب الصعيدان معاً في جيل جديد ليس أصله يهودياً ولا أصله أممياً، بل مسيحي!!

فالمسيحية التي قُبلت على أصل يهودي، لما دخلت وجدت ميراثاً غنياً من الإستعلانات الإلهية والعادات والممارسات الروحية فتمسكت بها على قدر ما وجدت فيها من حق. أما المسيحية التي قُبلت على أصل وثني فلم تجد ناموس موسى ولا فرائضَ ولا عادات متأصلة، فانتقلت نقلة شديدة مفاجئة من الناموس الطبيعي إلى النعمة. فنشأ من ذلك اتجاهان في التعليم واضحان غاية الوضوح:

١ ــ تعليم متحفِّظ متمسك بالميراث الروحي الزاخر بالممارسات والصلوات والعبادة.

٢ ــ تعليم متحرر منطلق من كل فروض وقيود متجه ومتحرك بالنعمة فقط.

وكان لكل تعليم رسله: وسماهم الإنجيل «رسل الختان» و«رسل الغرلة»، أي رسل اليهود ورسل الأمم.

وقد تغلغل هذان الإتجاهان في كافة التعاليم والتوجيهات والتفسيرات والممارسات، وحينما كانا يتقاربان معاً ليصطدما، كان الرسل يسارعون لعقد المجمع ليقاربوا بين الإتجاهين بأقصى ما يمكن من التفريط في النواميس والفرائض الجسدية التي تبدو زيادة أو ثقيلة على الأمم حتى لا يثقلوا عليهم الإيمان، وفي نفس الوقت كانوا يحتفظون بأقصى ما يمكن من العادات وفروض العبادة الروحية وطقوسها وصلواتها حتى لا يتبدد التراث الروحي الذي ورثته الكنيسة من العهد

القديم، وذلك إتماماً لقول الرب «ما جئت لأنقض بل لأكمِّل.» (مت ٥: ١٧)

— «الرسل والمشايخ والإخوة (مع كل الكنيسة) يهدون سلاماً إلى **الإخوة الذين من الأمم**، في أنطاكية وسوريا وكيليكية. إذ قد سمعنا أن أناساً خارجين من عندنا أزعجوكم بأقوال مقلبين أنفسكم وقائلين أن **تختتنوا وتحفظوا الناموس**. الذين نحن لم نأمرهم. رأينا وقد صرنا بنفس واحدة أن نختار رجلين ونرسلهما إليكم مع حبيبينا برنابا وبولس. رجلين قد بذلا أنفسهما لأجل آسم ربنا يسوع المسيح. فقد أرسلنا يهوذا وسيلا وهما يخبرانكم بنفس الأمور شفاهاً لأنه **قد رأى الروح القدس ونحن أن لا نضع عليكم ثقلاً أكثر** غير هذه الأشياء الواجبة.» (أع ١٥: ٢٢ــ٢٨)

ولكن هذين الإتجاهين في أصول التعليم المسيحي ليسا في طبيعتها متعارضين ولا منفصلين، إذ نجدهما معاً في شخص يسوع المسيح وفي حياته وأقواله، فهو المخلِّص لليهود والأمم والحامل الكل في نفسه. الذي جاء «يأكل ويشرب» (متى ١١: ١٩) و«يقضي الليل كله في الصلاة» (لو٦: ١٢). لهذا نجد أن هذين الإتجاهين في التعليم يتقاربان شيئاً فشيئاً حتى يلتحما تماماً معاً في الأجيال الصاعدة، ويكوِّنان طبيعة الكنيسة الواحدة الجامعة الرسولية. فلم يعد بطرس رسولاً للختان ولا بولس رسولاً للغرلة، بل رسولان للكنيسة الواحدة.

ويوحنا الرسول لما أشرف على نهاية العصر الرسولي ونظر بعيني شيخوخته التي عبرت المائة عاماً، استطاع أن يمد يده ويكتب إنجيله الذي يعبِّر عن الوحدة الكاملة التي صارت لهذين الإتجاهين ثم يرفع يده مرة أخرى ويبارك الأجيال الصاعدة الحاملة غنى اليهود وحرية الأمم، غنى الطقس وعمق النعمة!!

ولكن نعود مرة أخرى إلى التمايز الشخصي الذي في الرسل الذي انطبع على

صفحات الإنجيل والذي كبرته الرسائل وأوضحته.

فنجد القديس يعقوب الرسول يمثل ناموس الأعمال، وكأنه في رسالته يشرح إنجيل متى.

ونجد القديس بولس الرسول يمثل ناموس الإيمان، وكأنه يشرح في رسائله إنجيل لوقا.

ونجد القديس بطرس الرسول يمثل ناموس الرجاء، وكأنه يشرح في رسالتيه إنجيل مرقس.

ونجد القديس يوحنا الرسول يمثل ناموس المحبة، وكأنه يشرح في رسائله ورؤياه إنجيله.

ولكن الأسفار في اتجاهاتها لم تكن تمثل الواقع بقدر ما كانت تحفر وتعمق في طبيعة البشرية كلها لترسي أساس الإيمان المتعدد الأوجه ليكوّن قانون الإستعلان الإلهي للأجيال في أقصى امتدادها واستنارتها.

فالإتجاه التعليمي الذي يشدد على ناموس الأعمال ورثته الكنيسة، فكوَّن فيها **الإتجاه النسكي** الأصيل المبدع الذي صارع ضد العالم والجسد وغلب؛ وصار شهادة حية لصدق الإنجيل والرسالة والرسولية.

والإتجاه التعليمي الذي يشدد على ناموس الإيمان والحرية ورثته الكنيسة، فكوَّن فيها **الإتجاه الكرازي** الذي جعلها تنطلق بلا قيد تبشر بحرية وتضع الأساس لكي يبني عليه الإتجاه النسكي مُثُله العليا وأخلاقياته.

والإتجاه التعليمي الذي يشدد على الرجاء ورثته الكنيسة ليكون عاملاً أساسياً **يسند الطبيعة البشرية في نُسكها وجهادها** ومصارعاتها مع الجسد

والـعالم، لأن الإخفاق والنكوص أمران لا يمكن تحاشيهما، وكذلك لا يمكن علاجهما إلا بناموس الرجاء.

والإتجاه التعليمي الذي يشدد على المحبة ورثته الكنيسة فكوّن فيها **الإحساس التصوّفي المبدع** الذي جعل الكنيسة تفتح ذراعيها لتحتضن الأعداء وتدوس على كل المعاثر.

هـذا هو التقليد الذي ورثته الكنيسة من رسلها الأطهار واختزنته، ليكون جزءاً حياً في طبيعتها الإلهية.

التقليد الرسولي يجمع شمل الكنيسة و يوحّد فكرها ويحفظ إيمانها الصحيح

●●●

و بتقدُّم الكنيسة ظهرت قيمة التفسير للأسفار المقدسة، وظهرت قيمة التمسك بالتقليد الرسولي في فهم الأسفار وشرحها وتأويلها بحسب قانون الإيمان!

فقد قام المبتدعون والهراطقة ونبذوا عنهم كل التقليد الرسولي وضربوا بقانون الإيمان عرض الحائط، و بدأوا يفسرون الإيمان من واقع آيات الأسفار المقدسة فقط معتمدين على العقل والمنطق فطعنوا، أول ما طعنوا، في ألوهية المسيح وقالوا إنه مخلوق!!

أما من الجهة الأخرى، فقد انبرى لهم الآباء الأساقفة الأمناء على الوديعة ٣١٨ أسقف وقالوا بألوهية المسيح ومساواته للآب في الجوهر، برأي واحد وفكر

واحد وفهم واحد، جمعتهم الكنيسة وكأنهم في أبروشية واحدة. ووحّد فكرَهم **وإيمانَهم التقليدُ المحفوظُ، وقاد عقلَهم الإستعلان الإلهي بوحدته الكاملة كما أدركه الرسل.**

أما الفريقان، فقد تمسك كل منهما بآيات الإنجيل، ولكن الهراطقة إذ خرجوا على الكنيسة أعوزهم التقليد الرسولي وأعوزتهم وحدة الإستعلان الإلهي للأسفار كلها، فخرجوا على قانون الإيمان وطعنوا المسيح وفككوا الثالوث وجدفوا على الله فلم يسعفهم تمسكهم المطلق بالإنجيل ولا منطقهم المعقول!

لقد كان رأس مال الكنيسة هو تقليدها الرسولي. والمدافعون عن الحق لم يكونوا أبداً أحراراً في تفسيرهم لقانون الإيمان، فالتقليد التفسيري لقانون الإيمان كما قبلوه وكما مارسوه ضرورة آمرة ملزمة، لقد «سُلِّم الإيمان مرة للقديسين» (يه٣)؛ ثم حُفظ أمانة إلى الأبد في أعناق الأساقفة. وفي رسالة للقديس أثناسيوس بعث بها للقديس سيرابيون يشرح له وجهة النظر هذه:

[وعلينا أن نعتبر هذا التقليد الذي هو تعليم وإيمان الكنيسة الجامعة منذ البدء، الذي أعطاه الرب؛ وكرز به الرسل؛ وحفظه الآباء؛ والذي عليه تأسست الكنيسة وقامت.][2]

وكما قال أيضاً للقديس سيرابيون:

[إن الآريوسيين فقدوا الرؤية العامة للأسفار الإلهية.][3]

أما كلمة «**الرؤية العامة**» هنا عند القديس أثناسيوس وهي باليونانية σκοπός، فرادفها عند إيرينيئوس كان «**النظرية العامة**» أو الفكرة الجامعة أو

---

(2) Athanas., Ad. Serap. I, 28.

(3) Ibid. II,7.

الأساسية ὑπόθεσις. أي أن الإنسان الفاحص للأسفار المقدسة يلزمه أولاً أن يكون لديه الرؤ ية العامة للأسفار المقدسة حسب تعبير القديس أثناسيوس؛ أو يكون عنده الفكرة الجامعة الأساسية من الأسفار المقدسة. وهذا ما يقدمه التقليد لكل من يعيش مخلصاً للكنيسة وآبائها أباً عن أب، ولكن الهراطقة والمبتدعين إذ لا يأخذون عن أب ولا عن تقليد يفقدون الرؤ يا الجامعة للأسفار المقدسة وتعوزهم الفكرة الأساسية التي تقوم عليها.

و يعود القديس أثناسيوس و يوضح كيف سار في المعركة الإيمانية مع آر يوس:

[حسب الإيمان الرسولي المسلَّم إلينا بالتقليد من الآباء، قدمتُ هذا التقليد دون أن أستحدث عليه شيئاً من الخارج. فما تعلمته فهذا هو ما كتبته، وهو مطابق للأسفار المقدسة.](٤)

وهنا إشارة مُحكَمة إلى وحدة التفسير مع الأسفار في توافق مطلق يقود إلى استعلان الحق استعلاناً كاملاً مضموناً.

ومن كلام القديس أثناسيوس يتبين لنا أن التقليد كان بمثابة العقل الواعي للكنيسة المفسِّر للإيمان. فالإلتجاء إلى التقليد كان يمثل التشبث بفكر الكنيسة الذي هو فكر الرسل والمسيح نفسه!! وهنا نورد قولاً للقديس ألكسندروس بابا الإسكندر ية الذي رأس مجمع نيقية:

[العقيدة الرسولية نحن نموت من أجلها.](٥)

والكنيسة لم تكن تحفظ التقليد في كتب أو تختزنه في مخطوطات، ولكن كانت تعيشه كل يوم في قانون إيمانها الحي الذي تمارسه في صلواتها وعباداتها وطقوسها

(4) Quast., Patrology II, 17.

(5) Athanas., Ad. Serap. I, 33.

وأسرارها . لأن قانون الإيمان بتفسيره الكامل كان يلقِّنه الأسقف للمعتمدين دائماً . لـذلـك فإن حق تفسير الأسفار المقدسة كان ميراثاً إلهياً للكنيسة ، وحقاً موقوفاً عليها وحدها ، لأنها تعيشه ، ولأنها كانت مستعدة أن تموت دائماً من أجله .

أما قصد الكنيسة من تفسيرها للأسفار المقدسة فلم يكن محدوداً بتوضيح المعنى فقط بل كان أولاً لإعلان المسيح نفسه لكي تحيا به الكنيسة . فالإيمان لا ينتهي عند الفهم ، ولكنه يبتدىء و ينتهي بالحياة مع المسيح .



الفصل السادس

التقليد ونمو الحاسَّة الإيمانية العامة في الكنيسة

□□□

من مآثر التقليد التفسيري، الذي تَوفَّر الرسل بأنفسهم على تسليمه وتعليمه للكنيسة كما تَوفَّر المسيح من قبل على تعليمه للرسل بنفسه، أن تربَّى في الكنيسة وعي إيماني عام وإحساس مرهف لفهم وتفسير الإيمان الذي رسخ في أعماق الكنيسة وبنى فكرها بناءً إلهياً كما يبني المعلم فكر تلميذه الخصوصي أو ابنه، بل وبنى ضميرها بناءً حساساً تجاه حفظ الوديعة الإيمانية الإلهية سواء الشفاهية منها أو الكتابية، بقوة وأمانة وإصرار بلغ حد الإستشهاد في كل عصر وكل جيل.

[الكنيسة ولو أنها توزعت على كل العالم حتى أقاصي الأرض، إلا أنها تسلمت من الرسل ومن تلاميذهم الإيمان بالله الواحد الآب الضابط الكل صانع السموات والأرض والبحر وكل ما فيها، وبابن الله الواحد يسوع المسيح الذي تجسد من أجل خلاصنا، وبالروح القدس الناطق في الأنبياء، وبتدبير مجيئه وبميلاده من العذراء، وآلامه وقيامته من الأموات وصعوده إلى السماء جسدياً، وظهوره الآتي من السموات في مجد الآب «ليجمع كل شيء في واحد» (راجع أف ١ : ١٠)، وبقيامة الأجساد لكل بني البشر حتى تجثو كل ركبة مما في السموات وعلى الأرض وما تحت الأرض

و يعترف كل لسان بيسوع المسيح رباً وإلهاً ومخلصاً وملكاً حسب مشيئة الآب غير المنظور، وليدين الجميع بالعدل...

والكنيسة التي تسلمت هذا التعليم وهذا الإيمان ولو أنها موزعة على كل العالم إلا أنها كائنة كأنها في بيت واحد **تحفظ هذا الإيمان بعناية وتعتقد بكل التعليم وكأن لها نفساً واحدة وقلباً واحداً تذيعه وتكرز به وتسلمه بانسجام كامل وكأن لها فماً واحداً.] القديس إيرينيئوس (1)**

هذا الوعي الإيماني العام، وهذه الحساسية الفكرية المرهفة للحق، وهذه الأمانة الضميرية الشجاعة تقبّلت الأسفار المقدسة تقبُّلاً كاملاً ومنسقاً. فلم تعد الأسفار المقدسة بالنسبة للكنيسة، كأساقفة وكشعب مؤمن غيور وواعٍ لتقليده الرسولي، مجرد كتب تُقرأ وتُفسَّر، ولكن كانت في الواقع جزءاً حياً من فكر الكنيسة بل هي فكر الكنيسة نفسه، فكرها الذي تعيشه وتسعد به، فكانت الأسفار موضوع مسرة شخصية وفرح وحياة وموت بالنسبة لكل من يعيش في الكنيسة.

فكان عندما يتلو المعمَّد قانون الإيمان و يشرحه له أسقفه، كانت كل كلمة فيه تأخذ موضعها في حياة المؤمن الجديد وتبني فكره وضميره، حسب تعبير القديس إيرينيئوس: «وكل اصطلاح يأخذ موضعه المناسب فيه».

وهكذا، شيئاً فشيئاً، تصبح الأسفار المقدسة ذات صورة عامة واضحة في ذهن المؤمن وفي ضميره حينما يقرأها على ضوء «قانون الإيمان»، أو كما يسميه القديس إيرينيئوس «قانون الحق»، لذلك يتشدد القديس إيرينيئوس في أنه لا ينبغي أن تُقرأ الأسفار أو تُفسر إلا بقيادة ونور «قانون الإيمان» الذي هو التقليد الحي

(1) Iren., Ad. Haer. I, X 1,2.

الشفاهي الذي تلقّنه كل مؤمن أثناء عماده مع التفاسير الملازمة له التي تقلدها الآباء عن الرسل واستُودعت أمانة في عنقهم والتي تختص بالله الآب وكل صفاته وأعماله والرب يسوع في علاقته بالآب وتجسده والروح القدس العامل في الخليقة والكنيسة. وهذه الصفات والتفاسير يسردها القديس إيرينيئوس كما استلمها في عدة صفحات والتي نعرفها كلنا الآن جيداً، لأنها انتقلت إلينا عَبْر الكتابات الآبائية.

***

ولكن القديس إيرينيئوس لا يعتبر قانون الإيمان العام مع شرحه مجرد معرفة مذخرة في الكنيسة، ولكنه يصف هذه المعرفة «كمسحة الحق» حيث جاءت كلمة «مسحة» بمفهومها السرائري أي «خريسما χρῖσμα». وهنا يربط القديس إيرينيئوس بين المعمودية وقانون الإيمان الذي يسلَّم للمعمَّد ربطاً قوياً، بحيث أصبح قانون الإيمان داخلاً ضمن السر نفسه كعمل إلهامي من الروح القدس، لذلك كانت المعمودية تسمى بـ«الإستنارة» حيث قبول قانون الإيمان هو بمثابة البصيرة الروحانية الجديدة للإنسان الجديد!!

بمعنى أن الإيمان بالثالوث بمقتضى التقليد أصبح هبة روحية أو وديعة إلهية استودعها الله للكنيسة: [وهكذا أصبح من المحتم أن نخضع للشيوخ في الكنيسة، هؤلاء الذين بواسطة تسلسل الأسقفية بالتسليم صارت لهم «مسحة الحق» الخاصة حسب مسرة الآب.](٢)، بمعنى أن معرفة الحق حسب قانون الإيمان وتفسيره، كما علَّم به الرسل، ظل في الكنيسة تحت قيادة الروح القدس، والذي يتسلم قانون الإيمان يكون كمن يتسلم «مسحة مقدسة»، وهي نفسها التي يشير إليها القديس

(2) Ibid., IV, 26.2.

يوحنا الرسول في رسالته الأولى بصورة مستترة عند قوله : «أما أنتم فما سمعتموه من البدء فليثبت إذاً فيكم . إن ثبت فيكم ما سمعتموه من البدء (قانون الإيمان) **فأنتم أيضاً تثبتون في الإبن وفي الآب**. وهذا هو الوعد الذي وعدنا هو به الحياة الأبدية . كتبت إليكم هذا عن الذين يضلونكم . وأما أنتم فالمسحة التي أخذتموها منه ثابتة فيكم ولا حاجة بكم أن يعلمكم أحد ، بل كما تعلمكم هذه المسحة عينها عن كل شيء وهي حق وليست كذباً . كما علَّمَتْكُم تثبتون فيه . » (١يو٢ : ٢٤ــ٢٧)

وهنا يشير القديس يوحنا الرسول إلى أن قانون الإيمان الخاص بالثالوث الأقدس قد أُعطي لهم بسر خاص ، فأصبح الإيمان به قادراً أن يعلم الإنسان كل شيء عن الحق الإلهي ، **ولا يعود في حاجة إلى علم الهراطقة.**

ومن هنا يظهر بمنتهى الوضوح البذرة الإلهية التي أُلقيت في عقل الكنيسة وقلبها وضميرها بواسطة المسيح ، وهي قانون الإيمان الذي نما أولاً في عقل التلاميذ بواسطة تعاليم المسيح الخاصة السرية لتلاميذه : «لأنه قد أُعطي لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله » (متى١٣ : ١١)، ثم نما في عقل الكنيسة بواسطة تفسير الرسل وتعاليمهم تحت إرشاد وإنارة الروح القدس . لذلك اعتُبرت الكنيسة دائماً « كنيسة رسولية » .

فقانون الإيمان كان المرادف الفكري والإيماني الذي انبثق من نفخة المسيح في وجه تلاميذه قبل الصعود ، وصار هو المنهج الأساسي لكرازتهم بإرشاد وقيادة الروح القدس منذ يوم الخمسين ! هذه النفخة الإلهية التي يمثلها قانون الإيمان هي بعينها روح وحياة الكنيسة حتى الآن .

[وتعليم الكنيسة هو ــ بهذا الخصوص ــ متوافق ورصين ومستمر كالفيضان في طريق مستقيم وله شهادة من الأنبياء والرسل وكافة التلاميذ منذ البدء وعلى المدى ومن معونة الله .

فهذا الإيمان القائم على أصل مثل هذا، متين وثابت، والهادف لخلاص الناس المسلَّم للكنيسة نحن نحفظه، وهو دائماً يتجدد مثل النسر شبابه بروح الله.

هذه الهبة (المسحة) التي استودعها الله الكنيسة (بمقتضى قانون الإيمان) هي كنفختة التي نفخها في آدم الأول عند خلقته، حتى إن كل من يتقبلها (مسحة الحق) يحيا.

وقد صارت مسحة الحق هذه هي الواسطة التي بها يجعل الروح القدس لنا شركة مع المسيح و يكون لنا عربون عدم الفساد وثبات الإيمان وسُلَّماً نصعد به دائماً إلى الله.] **القديس إيرينيئوس** (٣)

و واضح أن القديس إيرينيئوس يشير بمسحة الحق إلى ما جاء في رسالة يوحنا الرسول (١يو٢: ٢٤–٢٧) ما سبق ذكره، و يوضح ضرورة الإعتماد على هذه المسحة التي سُلِّمت للكنيسة، فلا يعود يطلب الحق بخصوص الله خارج الكنيسة: «وأما أنتم فلكم مسحة من القدوس وتعلمون كل شيء.» (١يو٢: ٢٠)

[وإذ لنا مثل هذه التأكيدات فلا ينبغي أن نطلب أو نفتش عن الحق عند الآخرين، لأنه من السهل الحصول عليه من الكنيسة، لأن الرسل وضعوا في يدها كل ما يختص بالحق. وكل من أراد يستطيع أن يستقي منها ماء الحياة.] **القديس إيرينيئوس** (٤)

***

(3) Ibid., III, XXIV.
(4) Ibid., III, 4.

نمو التقليد

□□□

ومن تعليم القديس إيرينيئوس تظهر الصفة الإلهية لقانون الإيمان، حسب التقليد الرسولي، وهي صفة النمو، ككل شيء إلهي: «وهو دائماً يتجدد مثل النسر شبابه بروح الله». لأن كل استعلان أو هبة من الله للإنسان، وبالأخص إذا كان يخص الإيمان بالحق وبالثالوث، فهو حتماً يمتد في الزمان الحاضر وفي الآتي أيضاً وعلى مدى الخلود. فإن كان يُعطَى في البدء كاملاً، إلا أنه يظل يتوضح لفكر الإنسان يوماً بعد يوم، ليس في هذا الزمان فحسب بل وفي الآتي أيضاً:

[ليس في الحاضر فقط بل وفي الدهر الآتي أيضاً، فالله سيظل إلى الأبد يعلّم، والإنسان سيظل إلى الأبد يتعلم الأشياء التي يتلقنها من الله. فالإيمان، بالنسبة للرب، سيدوم و يثبت بلا تغيير مؤكداً لنا إنه لا يوجد إلا إله واحد، وأننا ينبغي أن نحبه بالحق، وإنه هو أبونا الوحيد، مترجّين أن نتقبل منه ونتعلم منه أكثر فأكثر لأنه صالح، وغناه لا يُحدُّ وملكوته بلا نهاية ومعرفته لا يمكن أن تبلغ أقصاها أبداً.] **القديس إيرينيئوس**(٥)

ولكن طبيعة الإستعلانات الإلهية تبدأ غامضة، فبالرغم من أن الرب أعلن لتلاميذه كل ما يختص بحقائق الإيمان وخصوصاً علاقته بالآب، إلا أن التلاميذ ظلوا غير فاهمين، ولكن يرددون الحقيقة بكل قوة وإصرار: «أنت هو المسيح ابن الله الحي» (متى ١٦ : ١٦). ولكنهم ظلوا بالرغم من هذا الإعلان غير فاهمين تماماً. بل وحتى حينما أخبرت النسوة التلاميذ أن الرب قد قام من الأموات، فبدا كلامهن للتلاميذ «**كالهذيان**» مع أن المسيح سبق وأعلن لهم حقيقة قيامته مما جعل المسيح

(5) Ibid., II, 28.3.

يوبخ التلاميذ عندما ظهر لهم في العلية موبِّخاً «عدم إيمانهم». وقد شرح المسيح مثل هذه الأعراض التي تصيب فكر الإنسان بخصوص الحقائق الإلهية أنها «قساوة قلب»: «ووبخ عدم إيمانهم **وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا** الذين نظروه قد قام.» (مر١٦: ١٤)

وهكذا أصبح مجال الإمتداد في الفهم والكشف والمعرفة والتفسير في أمور الإيمان حسب التقليد المسلَّم مفتوحاً أمام الكنيسة على مدى الأجيال، بمقدار ما تنمو الكنيسة في المحبة وبساطة القلب، وعلى قدر ما تجتهد في تنقية ضميرها بالنسبة لعلاقتها مع الآخرين وبالأخص الضعفاء والعاثرين والمنبوذين وكافة خطاة الأرض. ويوضح هذه الحقيقة بمنتهى التحديد والدقة القديس ڤنسنت الذي من الليرين(٦):

[وإنه جدير أن نعرض بالتفصيل لما قاله الرسول بولس لتيموثيئوس: «يا تيموثيئوس أحفظ الوديعة مُعرضاً عن الكلام الباطل الدنس ومخالفات العلم الكاذب الإسم الذي إذ تظاهر به قوم زاغوا من جهة الإيمان» (١تي٦: ٢٠و٢١). «**إحفظ الوديعة**»، ما هي الوديعة؟ هي ما استؤمنت عليه وليس ما تقترحُه أنت، هي ما تعلمته بالتسليم — وليس ما تخترعه بذكائك وحكمتك، هي التقليد العام وليس ما يتبناه فكرك، هي ما انحدر إليك ووصلك وليس ما تخلقه من نفسك، هي ما أنت ملتزم أن ترتبط به لتحفظه لا أن تؤلفه، وهكذا تبقى من تحت الوديعة تلميذاً، لا معلماً من فوقها.

وقد يسأل إنسان: هل يُفهم من هذا أنه كُتب على كنيسة المسيح أن لا تتقدم؟ ليس كل تقدُّم تقدماً، فمن يستطيع أن يمنع تقدم كنيسة المسيح ولا يقع

---

(٦) القديس ڤنسنت كاهن فرنسي عالم قديس توفي عام ٤٥٠ ميلادية.

تحت بغضة الناس والله؟ إنما التقدم المطلوب هو التقدم الحقيقي في الإيمان وليس تغيير الإيمان! لأن التقدم يعني الإمتداد بنفس الأصول وليس تغييرها لتكون شيئاً آخر.

إن ذكاء الإنسان وعلمه وحكمته، سواء بالنسبة للفرد أو لكل الكنيسة، ينبغي بالضرورة أن ينمو و يتقدم بقوة إنما فيا يختص بنفس التعليم ونفس المشاعر ونفس المعاني (التي في الإيمان الأول).

وفي كنيسة المسيح ينبغي لحارس الوديعة الإيمانية والتعاليم التي أؤتمن على حراستها أن لا يغير شيئاً على الإطلاق؛ ولا يُنقص منها شيئاً على الإطلاق؛ ولا يضيف عليها شيئاً على الإطلاق؛ لا يختزل ما هو ضروري فيها ولا يدس ما هو نفاية وز يادة، وإلا تفقد التعاليم جوهرها!

فعندما يتعرض الإنسان للتعاليم القديمة، عليه أن يتعامل معها بأمانة كقضية تحتاج لروح القضاء، و يضع في الإعتبار دائماً أنه إذا وجد شيئاً في التعاليم القديمة قد تُرك مبهماً غير واضح فصار مهملاً كأنه فضلة، فعليه أن يصيغه جديداً ويجليه. أما إذا وجد في هذه التعاليم شيئاً قد مُسخ شكله و بدأ يتطور خطأ فعليه أن يدعمه و يثبته، أما إذا وجد شيئاً مدعماً مشروحاً فعليه أن يحفظه ويحرسه. علماً بأن قصد المجامع وقراراتها لم يكن أبداً يهدف لشيء سوى أن تجعل ما كان يؤمَن به سابقاً ببساطة و بلا فحص أن يصير قابلاً أن يؤمَن به في المستقبل بالعقل والذكاء؛ وما كان سابقاً يوعظ به في عدم مبالاة يسترعي في المستقبل كل اهتمام وحماس، وما كان سابقاً يُمارَس بإهمال يصبح على المدى في المستقبل موضوع اشتياق واهتمام ورعدة... هذا كله دونته الكنيسة واستودعته للأجيال الصاعدة في كلمات سجلتها كما تسلمتها من الأزمنة القديمة في تقليد يحوي مقداراً هائلاً من التعليم إنما بكلمات

قليلة هادفة بذلك لإزدياد المعرفة وتفاضلها، وقد رسمت ووضحت فيه عناصر الإيمان القديم بكلمات وأسماء خاصة حديثة (أي كلمات لم تكن معروفة سابقاً مثل «الثالوث» و«الطبيعة» و«الأقنوم»...إلخ](٧)

ولكن نمو التعمق والتفسير للأصول الإيمانية يضع له القديس ڤنسنت شروطاً واضحة محددة:

[**«إحفظ الوديعة»**: أي احفظ موهبة الإيمان العام بغير دنس، بغير غش، وما أؤتمنت عليه فاحتفظ به دائماً حتى تسلمه لآخرين ــ لقد تسلمتَ ذهباً، سلِّمْه ذهباً!!

«**يا تيموثاوس**»: أي «أيها الكاهن»، أيها الشارح، أيها المعلم، إن كانت الموهبة التي تسلمتها قد زادتك حكمة وزادتك مهارة وزادتك علماً فكن مثل بَصَلْئيل(٨)، فقد أؤتمنت مثله على الخيمة الروحية (الكنيسة)، فرصِّعْها أنت بالجواهر الثمينة أي بالتعاليم الإلهية المتقنة، زيِّنها بمهارة لتزداد بواسطتك جمالاً ونعمة.

وكل التعاليم التي قُبلت بالإيمان وكانت سابقاً مفهومة فهماً غير واضح، اشرحها أنت جيداً لتُفهم بواسطتك فهماً صحيحاً، وهيِّىء للأجيال الصاعدة أن تتقبل وتفهم بوضوح ما تقبَّله الأسلاف قديماً ووقَّروه وكرَّموه دون أن يفهموه.

علِّمْ بنفس الحقائق التي تعلمتها حتى يظل، بينما أنت تتكلم بطريقة حديثة ومنهج جديد، ما تُعلِّم به وتتكلم به ليس جديداً.](٩)

---

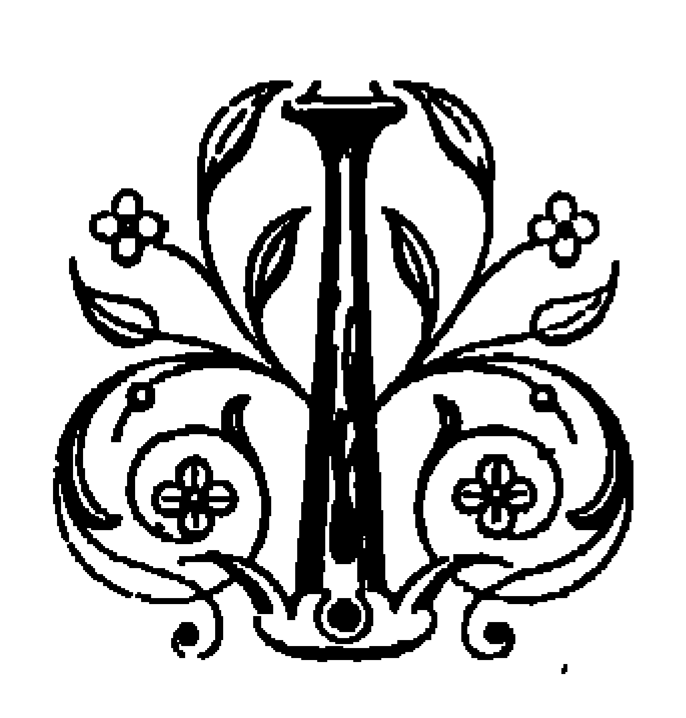
(7) St. Vincent of L., N.P.N.F., Vol. XI, Ch. XXIII, p. 147.

(٨) خر٣٦: ١.

(9) Commonit, Ch. XXII, p. 147.

كما يستطرد القديس ڤنسنت بعد ذلك شارحاً أن التمسك بالتقليد الرسولي ليس معناه أن الكنيسة تتوقف عن تقدمها في الكشف والإعلان والتفسير والتوضيح والنعمة، بل على العكس فالتقليد الرسولي في الكنيسة بمثابة نفخة الحياة التي، كما قال القديس إيرينيئوس، أطلقت فكر الإنسان ليحلق في أسرار الثالوث و بالتالي في كل حقائق الوجود.

و بقدر ما يتحرر فكر الإنسان و يستنير بالروح بقدر ما سوف يتقدم أكثر فأكثر في معرفة الإيمان إنما حسب أصوله الأولى.



الفصل السابع

قيمة التقليد في الكنيسة

نضوج الحاسة الإيمانية للكنيسة
وتحديد قانون الأسفار المقدسة

□□□

لقد ابتدأت الكنيسة بتجميع الأسفار المقدسة منذ أيام الرسل إذ نستشف من قول القديس بطرس الرسول عن رسائل القديس بولس الرسول: «كما في **الرسائل كلها** أيضاً متكلماً فيها عن هذه الأمور التي فيها أشياء عسرة الفهم يحرفها غير العلماء وغير الثابتين **كباقي الكتب أيضاً** لهلاك أنفسهم» (٢بط٣: ١٦). ومن هذا الكلام يتضح أن الكنيسة كانت قد جمعت **كل** رسائل بولس الرسول معاً؛ كما يفيد أيضاً أنها جمعت بقية الكتب، أي الأناجيل التي كانت مكتوبة.

ولكن بظهور هرطقات «الإيبونيم» و«الغنوستيين»، انهمر على الكنيسة سيل من الكتب المزورة التي تحمل أسماء رسل وتلاميذ، يقدّرها القديس إيريني‌ئوس بالآلاف.

ولم يكن لدى الكنيسة أي مقياس تقيس عليه الأسفار الصحيحة بالنسبة إلى المزورة، إلا التقليد الرسولي نفسه بالإضافة إلى **حاسة الإيمان**[1]

(1) Beth. Baker, op. cit. 42.

Sensus Fidelium الموثوق بها التي نضجت في الكنيسة على مر الزمن بفعل النمو في المعرفة والإلهام في حدود التقليد.

بهذه الحاسة الكنسية العامة، استطاعت الكنيسة أن تنفض عنها آلاف الكتب المزورة التي كُتبت لحساب الهراطقة والتي أَلَّفها بعض الكتَّاب المسيحيين لتسدَّ اشتياقاتهم في معرفة الأمور التي أمسك الإنجيل عن ذكرها، مثل حياة العذراء مريم قبل البشارة، وحياة المسيح قبل الخدمة، وكثير من الرسائل المدسوسة التي أُلِّفت لمجرد إشباع الحوار القصصي، وكثير من الرؤى للرد على الأسئلة الحائرة بخصوص المستقبل. كل هذه الكتب لم تتهاون الكنيسة في قطعها جملة واحدة.

ولكن لم تستطع الكنيسة أن تستقر بخصوص تحديد الأسفار المقدسة تحديداً نهائياً إلا في نهاية القرن الرابع، لأن بعض الرسائل كانت محل تردُّد. وأخيراً، فمنها ما حُذف ومنها ما استُقرَّ عليه نهائياً في القانون.

وآخر تقنين للأسفار المقدسة تم في مجمعين بشمال أفريقيا: واحد في مدينة هيبو عام ٣٩٣م؛ والآخر في قرطاجنة سنة ٣٩٧م بحضور القديس أغسطينوس، حيث صار الكتاب المقدس بصورته التي لا يزال عليها حتى اليوم.

وأول من أطلق على أسفار الإنجيل اسم العهد الجديد Καινὴ Διαθήκη هو العلاّمة ترتليانس. والعهد الجديد مقسَّم في التقليد الكنسي إلى قسمين: الأول يسمى «الأناجيل»، والثاني يسمى «الرسائل». ولا يزال يُقرأ في الكنيسة على هذا الأساس، حيث تُقسَّم الرسائل أيضاً إلى «البولس» و«الكاثوليكون» أي «الجامعة».

قيمة التقليد التفسيري في الصراع ضد الهرطقات

●●●

لا يمكن فهم الدور العظيم الذي قام به التقليد في حفظ الإيمان كما لا يمكن فهم الكتابات الآبائية باتجاهاتها المتنوعة في اللاهوت والتفسير والطقس، إلا إذا فهمنا ولو بصورة مختصرة جداً الدور الخطير الذي لعبته الهرطقات المتعددة في مهاجمة الإيمان المسيحي.

كان الصدام تلو الصدام الذي يحدث بين الهراطقة والكنيسة، هذا الذي كان ينتهي دائماً بنصرة الكنيسة، كان يمثل في الواقع الصراع بين الروح الفردية ضد روح الجماعة التي تمثلها الكنيسة؛ كما كان يمثل التنازع بين الجديد المستحدث بالعقل في الإيمان وبين القديم الثابت الملهم.

أو بمعنى آخر، فإن الصراع ضد الهرطقات كان يمثل أكبر امتحان دخله التقليد التفسيري حيث أثبت حيويته وقدرته على النضال والغلبة الفائقة.

وبالرغم مما جلبه هذا الصراع الطويل المرير على الكنيسة من آلام وتمزق، إلا أنه كان عاملاً فعالاً في تثبيت الإيمان وتفجر طاقات الإلهام والمعرفة وتجدد حاسة الحق والتعمق في الرؤيا والكشف، مما أفاض على روح الكنيسة وإيمانها وعقيدتها بركات لا تحصى ولا تُعدُّ.

وقد وقف قانون الإيمان الرسولي في هذا النضال العنيف كسيف واضح بتّار ذي ثلاثة حدود (آب وابن وروح قدس)، كل من وقع عليه من أي حد صرعه. فكان قانون الإيمان في يد الرسل والكنيسة ضمين النصرة، ضد كافة أنواع

الهرطقات التي شنَّها الشيطان بواسطة عقل الإنسان ، وأضرم بها حول الكنيسة دائرة من جهنم . ولكن تم القول أن : « أبواب الجحيم لن تقوى عليها . » (متى ١٦ : ١٨)

وسوف نعرض هنا لأصول الهرطقات فقط تاركين التفاصيل لفصل آخر.

الهرطقات في العصر الرسولي

●●●

— « أيها الأحباء إذ كنت أصنع كل الجهد لأكتب إليكم عن الخلاص المشترك ، اضطررت أن أكتب إليكم واعظاً أن تجتهدوا لأجل الإيمان المسلَّم مرة للقديسين ، لأنه دخل خلسة أناس قد كُتبوا منذ القديم لهذه الدينونة ، فُجّار، يحوِّلون نعمة إلهنا إلى الدعارة و ينكرون السيد الوحيد الله وربنا يسوع المسيح . » (يه ٣ و٤)

كانت الهرطقات التي قامت في أيام الرسل تمثل صورة كاملة لكافة أنواع الهرطقات التي ستواجهها الكنيسة بعد ذلك في جميع العصور حتى عصرنا هذا، لأن أصل السم واحد ورأس الحية الذي يصنع التجديف واحد .

وتنقسم هرطقات العضر الرسولي عموماً إلى نوعين : هرطقات يهودية ، وهرطقات وثنية غنوستية .

أما الهرطقات اليهودية فبحسب طبيعتها في التمسك بوحدانية الله اتجهت ضد لاهوت المسيح لتهدم العمود الأوسط في قانون الإيمان، و بالتالي لتهدم عقيدة الثالوث .

وأما الهرطقات الوثنية فاتجهت ضد وحدانية الله منجذبة بطبيعتها الأولى إلى تعدد الآلهة .

وقد اختفت هذه الهرطقات بنوعيها في ثوب المسيحية نفسه ، فوقفت الكنيسة بين خطر التهوُّد وخطر الرجوع للوثنية .

وقد تقبَّل هؤلاء الهراطقة معمودية المسيحية مزيَّفة بالماء فقط ، وليس بالروح والنار الإيمانية .

١ ــ الهرطقات اليهودية

وكانت على ثلاث فئات ، وكل فئة تخصصت في سلاح من أسلحة الهدم :

أولاً : الإيبونيون Ebionites وتُنطق بالعبرية « إيبونيم » ، وهو اسم استهزاء يعني « فقراء المسيا » (٢)، وقد أطلقه عليهم بقية اليهود . هؤلاء انضموا إلى المسيحية وعاشوا في فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وكوَّنوا داخل المسيحية قوقعة يهودية ذات مدرسة فكرية خاصة ، وقد حاولوا تطبيق فرائض الناموس والوصايا القديمة بالقوة على بقية المسيحيين ، لأن روح الفريسيين كانت متأصلة فيهم . وقد قاوموا تعاليم القديس بولس الرسول ولم يعتبروه رسولاً ، لذلك كتب للكنائس لينفي إدعاءاتهم مؤكداً أنه رسول وأنه عاين الرب وأن علامات الرسالة عُملت بينهم . وقد هاجمهم القديس بطرس الرسول في رسالته الثانية باعتبار أنهم يحرِّفون كتابات القديس بولس الرسول « لهلاك أنفسهم » (٢ بط ٣ : ١٦) . وقد رفضوا رسائل بولس الرسول واعتبروه هرطوقياً وحرفوا لأنفسهم إنجيل متى وسموه « إنجيل العبرانيين » .

---

(2) Origen, De Princip. IV, 1.22.

وأول من ذكر هذه الشيعة القديس إغناطيوس، ثم القديس إير ينيئوس (٣) الذي أوضح أنهم رفضوا لاهوت المسيح، وقالوا بالحكم الألفي. والعلاّمة أوريجانس (٤) يذكر أنهم كانوا فر يقين، والمؤرخ يوسابيوس يذكر أن الفرق بين الفر يقين كان بالنسبة لإعتبارهم لشخص المسيح: فالفر يق الأول اعتبره مجرد إنسان نبي مولود ولادة طبيعية، والفر يق الآخر كان يؤمن بميلاده الفائق، ولكنهم رفضوا الإيمان بأزليته ووجوده السابق على الميلاد (مساواته للآب). وهؤلاء حفظوا السبت جداً، ولكنهم كانوا يكرمون يوم الرب وتمسكوا بكافة الفرائض والناموس.

و يُظن أن المجمع الذي عقده الرسل في أورشليم المذكور في سفر الأعمال كان ضدهم (أع ١٥).

والقديس بولس الرسول يقاوم تعاليمهم بوضوح في رسائله، وخصوصاً في الرسالة إلى أهل غلاطية وغيرها فيما يختص بالختان والفرائض والعوائد العجائز ية.

وقد ذكرهم العلاّمة چيروم أنهم تشتتوا في أيامه وانحلّوا، فلم ينفعوا أن يكونوا مسيحيين ولا يهوداً.

ثانياً: الكيرنثيون: و«كيرنثوس» هو أحد الإيبونيين، ولكنه لنبوغه انفصل عنهم وكوّن مدرسته الخاصة التي مزج فيها اليهودية بالغنوستية العلمية، وفسّر التجسد بأنه إتحاد ظاهري تم بين يسوع المولود ولادة طبيعية والمسيا غير المنظور، وأن هذا الإتحاد انفك بعد تأديته رسالته. كما اعتمد كيرنثوس في شرح التعاليم المسيحية على الغنوستية فشوّه كل ما يختص باتجاهها الخلاصي وجعلها مجرد تعاليم، ورفض الإيمان بالقيامة التي قامها المسيح وقال إنها لم تأتِ بعد، ورفض كل الأناجيل ما عدا إنجيل متى.

(3) Iren. Adv. Haer. I, 26.
(4) Epist. 111, 13.

وقد انتشرت تعاليمه في أيام القديس يوحنا الرسول. وفي هذا يقول القديس إيرينيئوس: [و يوحنا تلميذ الرب نادى بهذا التعليم (الإيمان بالثالوث الآب والإبن والروح القدس). وقد عنى بإنجيله أن يلاشي المعاثر التي انتشرت بين الناس بواسطة كيرنثوس و بواسطة نيقولاوس وشيعته الذين كانوا قبل كيرنثوس بمدة طويلة، وهم أصحاب العلم الكاذب الإسم Gnosis ، وقد أراد به (أي بالإنجيل) أن يربكهم ويحيرهم و يقنعهم أنه يوجد إله واحد وهو الذي صنع كل شيء «بالكلمة»... فتلميذ الرب أراد أن يضع حداً لمثل هذه التعاليم (الكاذبة)، و يدعّم «قانون الحق» في الكنيسة أنه يوجد: إله واحد ضابط الكل الذي خلق كل شيء بكلمته، ما يُرى وما لا يُرى، مبيناً أن الكلمة الذي خلق الخليقة هو هو في نفس الوقت الذي أنعم بالخلاص على الإنسان الذي هو ضمن الخليقة. وهكذا بدأ إنجيله: «في البدء كان الكلمة. والكلمة كان عند الله. وكان الكلمة الله. هذا كان منذ الأزل عند الله. به كان كل شيء و بغيره لم يكن شيء مما كان. فيه كانت الحياة والحياة كانت نور الناس، والنور أضاء في الظلمة والظلمة لم تدركه».] **القديس إيرينيئوس** (٥)

وهنا يوضح القديس إيرينيئوس أن القديس يوحنا الرسول كتب إنجيله — بوحي من الروح القدس — لتثبيت قانون الحق أي «**قانون الإيمان**» في الكنيسة!! وذلك رداً على الهجوم الذي شنّه العدو بواسطة الهراطقة اليهود والغنوستيين لزعزعة قانون الإيمان في الكنيسة بالله الآب والإبن والروح القدس.

[لا يضلكم أحد بتعاليم غريبة وخرافات عتيقة لا طائل منها، لأننا إن كنا

---

(5) Iren. Ad. Haer. III, 11.1.

سنعيش حسب ناموس اليهود فنحن نعترف بذلك أننا لم ننل نعمة.] **القديس إغناطيوس** (٦)

[والذين يُدعون بإسم الإيبونيين Ebionites يوافقون على أن الله هو الذي خلق العالم، ولكن مبادئهم عن الرب هي مثل كيرنثوس ـــ (أحد زعمائهم ومثل كاربوكرات (غنوستي) ـــ وهم يستخدمون إنجيل متى فقط، و يرفضون القديس بولس الرسول، و يقولون عنه إنه مرتد عن الناموس. يحفظون الختان وكل العوائد المذكورة في الشريعة، فهم يهود في حياتهم، و يبجلون أورشليم كأنها بيت الله.] **القديس إيرينيئوس** (٧)

[يوجد أيضاً من سمعوا من بوليكارپ أن يوحنا (الرسول) تلميذ الرب ذهب مرة ليستحم في حمامات أفسس، وإذ لمح كيرنثوس في الداخل، خرج مسرعاً من الحمام دون أن يستحم قائلاً: لننطلق بسرعة لئلا يسقط علينا الحمام لأن كيرنثوس عدو الحق في الداخل.] **القديس إيرينيئوس** (٨)

ثالثاً: الأسينيون المتنصِّرون: وهم جماعة اليهود الأسينيين الذين كانوا يستوطنون وادي القمران على ضفاف البحر الميت، وهاجروا من موطنهم وتشتتوا في البلاد كلها. وقد قبلوا المسيح بصفته نبياً ومعلماً الحق وسيد الملائكة، ولكنهم اعتبروا لاهوته خيالاً ووهماً (عكس الأوطاخيين فيما بعد)، وتمسكوا بعوائدهم النسكية من عدم أكل اللحم والتطهيرات الكثيرة والمنع عن الزواج وعبادة الملائكة. وقد فسروا ظهور المسيح كانبثاق يتكرر في العالم لتطهيره كما فسروا تعاليم

---

(٦) رسالة إلى أهل ماغنيزيا فصل ٧.

(7) Iren. Ad. Haer. I, XXVI, 2.

(8) Ibid., III, 5, 4.

المسيح بالمبدأ الباطني. وقد قاوموا تعاليم بولس الرسول، وقد عرج عليهم القديس بولس الرسول في رسالته مهاجماً عقيدتهم عندما هاجم عبادة الملائكة والتواضع الكاذب وقهر الجسد و بقية التمسك بالتطهيرات والغسولات التي هي نوافل العبادة التي لم تشبع روح البشرية (كو٢: ٣). كما هاجمهم أيضاً في رسالته الأولى إلى تيموثاوس باعتبارهم أنهم هم الذين قيل عنهم إنهم سيأتون في الأزمنة الأخيرة (لليهودية) و يرتدون عن الإيمان «تابعين أرواحاً مُضلة وتعاليم شياطين في رياء أقوال كاذبة موسومة ضمائرهم مانعين عن الزواج وآمرين أن يُمتنع عن أطعمة قد خلقها الله للتناول بالشكر.» (١تي ٤: ١-٣)

و يلاحظ أن القديس بولس الرسول كان ينصح بعدم الزواج و بالأصوام والتقشف ولكن باعتبار أن الزواج طاهر والأطعمة كلها طاهرة. ولكن هذه الشيعة اليهودية اعتبرت أن الزواج نجس و بعض الأطعمة نجسة، لذلك يكمل القديس بولس الرسول أقواله عنهم «وأما الخرافات الدنسة العجائزية فارفضها» باعتبار أنها «تعاليم شياطين».

و واضح أن هذه الشيعة لم تنظر إلى المسيح كإله وكمخلِّص وفادٍ، بل كمعلِّم للحق والنُسك والتطهيرات.

ومهما كان تنوع الهرطقات اليهودية ـ كما رأينا ـ فقد تآزرت كلها معاً لإنكار الحقيقة الأساسية في الإنجيل وزعزعة قانون الإيمان من أساسه وركزت هجومها على لاهوت المسيح وتجسده لخلاص العالم، وذلك تارة بخفض المسيح إلى مجرد نبي وتارة برفعه إلى درجة روحانية عقلية مجردة وأخرى بجعله معلماً للنسك. وقد رفضت الهرطقات اليهودية كلها مبدأ التجسد الإلهي، أي إتحاد الإلهي بالبشري، الذي هو الأساس في ظهور المسيا بالجسد. وهكذا وقعوا في المحظور إذ تمت عليهم المواصفات

التي ذكرها القديس يوحنا الرسول كعلامة للكشف عن من هو «ضد المسيح» وفضحه ؟!

— « منا خرجوا (أي أنهم يهود) لكنهم لم يكونوا منا ، لأنهم لو كانوا منا لبقوا معنا لكن ليظهروا أنهم ليسوا جميعاً منا ... من هو الكذاب إلا الذي ينكر أن يسوع هو المسيح (المسيا). هذا هو **ضد المسيح** الذي ينكر الآب والإبن ، كل من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً . ومن يعترف بالإبن فله الآب أيضاً . » (١ يو٢ : ١٩ و٢٢ و٢٣)

وهنا ينبه القديس يوحنا الرسول ذهننا بكلمات غاية في الإحكام والتوجيه أن هذه الهرطقات اليهودية جميعها كانت مصوَّبة ضد قانون الإيمان لفصل الإبن عن الآب : « كل من ينكر الإبن ليس له الآب أيضاً » ، لأن إنكار الإبن هو هدم للثالوث و بالتالي لقانون الإيمان المسيحي كله القائم على إرسالية الآب للإبن لتكميل الفداء بواسطة العمل المشترك للثالوث .

إذن ، لولا وجود «قانون الإيمان الرسولي» واضحاً ومحدداً بالآب والإبن والروح القدس كإله واحد ، لاستطاعت الهرطقات اليهودية أن تنفذ إلى الإيمان المسيحي في عصر الرسل وتهوّده لترده إلى الوحدانية المنحجبة التي في ذهنية العهد القديم الخالية من أحشاء رحمة الآب والعادمة من محبة الإبن الفدائية والغريبة عن إمكانية الخليقة الجديدة بالروح القدس .

٢ ــ الهرطقات الوثنية

وأما الهرطقات الوثنية فكانت العكس المباشر للهرطقات اليهودية ، ويمكن تلخيصها كلها في مدرسة فكرية واحدة هي الغنوستية . فبقدر ما كانت الهرطقات

اليهودية تحفظية سالبية رجعية في مسيحيتها الكاذبة، كانت الغنوستية خلقية متطورة تقدمية. لذلك كان الخطر الغنوستي على المسيحية الأصيلة شيئاً مهماً وكبيراً وخطيراً، فقد عانت منه الكنيسة أتعاباً وواجهت منه بدعاً تلو البدع.

فكل اتجاه وضعه بولس الرسول للفصل بين المسيحية واليهودية، أخذته الغنوستية وتمادت فيه وضخمته حتى فصلت المسيحية عن جذرها السليم الذي انبثقت منه؛ وركزت على لاهوت المسيح العقلي حتى لاشت ناسوته وجعلته خيالاً ووهماً؛ وتمادت في الحرية التي وهبتها المسيحية للمربوطين بناموس موسى حتى جعلت هذه الحرية ستاراً غير شريف للإنحلال مع أنها (أي الغنوستية) تنادي بمنتهى الصراحة بالنسك باعتبار أن المادة كلها نجسة. ويكفي أن نعرف أن أب الغنوستية في العالم هو سمعان الساحر المذكور في سفر الأعمال ٨: ٩—٢٢. وقد ذكره القديس إيرينيئوس:

[سمعان الساحر المذكور في سفر الأعمال ... كان في أيام كلوديوس قيصر، وقد كرمه الإمبراطور وعمل له تمثالاً بسبب قوته الساحرة، وقد كرمه كثيرون (من الوثنيين) باعتباره إلهاً... هذا السامري خرجت منه كل أنواع الهرطقات.][٩]

وقد كان لسمعان الساحر معرفة ودراية كبيرة بالعلوم الوثنية: «وكان الجميع يتبعونه من الصغير إلى الكبير قائلين **هذا هو قوة الله العظيمة**» (أع ٨: ١٠). لأنه كان يدّعي أنه مصدر القوة المنبعثة من الله (أو نظرية الإنبعاث في الغنوستية) وأعطى نفسه ألقاباً إلهية. ويقول سفر الأعمال عنه إنه قَبِل المسيحية واعتمد في سبيل الإزدياد في قدراته على صنع الآيات، لذلك رآه القديس بطرس الرسول أنه قد ربط نفسه برباط الظلمة وقد تهيأ للمرارة العظيمة.

وقد استمر سمعان يزيف التعاليم المسيحية ويغش ممارساتها بأعمال سحرية

(9) Ibid., I, 23.

ووثنية، وتكوّنت له شيعة بتلاميذها سُميت بـ«السيمونية» أولاً ثم بـ«الغنوستية» بعد ذلك. وقد انقسمت إلى إتجاهين: إتجاه نسكي متشدد، وتزعّمه رؤساء الغنوستية في الجيل الثاني للمسيحية مارسيون (مارقيان) وساتورنينوس وتاتيان، والمانيّون بعد ذلك. واتجاه منحل متسفل أخلاقياً باعتبارهم أن الجسد منحط بطبيعته، فكلما أذللنا الجسد بالممارسات النجسة نكون بذلك قد رفعنا قيمة الروح، فلم يتورعوا عن ارتكاب الفحشاء علانية. وواضح أن هذا الإتجاه شيطاني. وقد تزعمه **نيقولاوس** (في آسيا الصغرى) المذكور في سفر الرؤيا، وأوفيتس، وكاربوكرات بعد ذلك في مصر، وماركوس الساحر الذي أضلَّ نساءً كثيرات وأفسد سيرتهن. (١٠)

على إنه كان لكل واحد من هؤلاء الشياطين المبتدعين اتجاه فلسفي ومدرسة وممارسات سحرية. غير أن الذي يعنينا في العصر الرسولي هو نيقولاوس رأس الأفعى الغنوسية. و يذكره القديس إيرينيئوس بقوله:

[والنيقولاويون هم أتباع نيقولاوس، وقد عاشوا عيشة منحلة أخلاقياً وذُكرت أخلاقهم بوضوح في سفر الرؤيا الذي ليوحنا بصفتهم كانوا يعلِّمون أن ارتكاب الزنا أمر ليس ذا بال.] **القديس إيرينيئوس** (١١)

وقد عاصر القديس يوحنا الرسول: «ولكن عندي عليك قليل أن عندك هناك (في آسيا الصغرى) قوماً متمسكين بتعليم بلعام الذي يعلم بالاق أن يلقي معثرة أمام بني إسرائيل أن يأكلوا ما ذُبح للأوثان و يزنوا. **هكذا عندك أيضاً قوم متمسكين بتعاليم النيقولاويين الذي أبغضه**» ... «ولكن عندك هذا أيضاً أنك تبغض **أعمال** النيقولاويين التي أُبغضها أنا.» (رؤ٢: ١٤و١٥و١٦)

(10) Ibid., I, XIII, XIV.
(11) Ibid., XXVI, 3.

هؤلاء عينهم يذكرهم القديس بطرس الرسول في رسالته الثانية: «معلمون كذبة الذين يدسون بدع هلاك. وإذ هم ينكرون الرب الذي اشتراهم يجلبون على أنفسهم هلاكاً سريعاً وسيتبع كثيرون تهلكاتهم. الذين بسببهم يجدَّف على طريق الحق. وهم في الطمع يتَّجرون بكم بأقوال مصنَّعة (ليست حسب التقليد)... ولا سيا الذين يذهبون وراء الجسد في شهوة النجاسة و يستهينون بالسيادة. جسورون معجبون بأنفسهم. لا يرتعبون من أن يفتروا على ذوي الأمجاد... لهم عيون مملوءة فسقاً لا تكف عن الخطية خادعون النفوس غير الثابتة... قد تركوا الطريق المستقيم (تقليد الرسل) فضلُّوا تابعين طريق بلعام بن بصور الذي أحب أجرة الإثم... هؤلاء هم آبار بلا ماء، غيوم يسوقها النوء. الذين قد حُفظ لهم قتام الظلام إلى الأبد (نفس الكلمات التي قالها بطرس الرسول لسمعان الساحر) لأنهم إذ ينطقون بعظائم باطلة يخدعون بشهوات الجسد في الدعارة من هرب قليلاً من الذين يسيرون في الضلال واعدين إياهم بالحرية وهم أنفسهم عبيد الفساد.» (٢ بط ٢)

وهذه الأوصاف التي اعتنى القديس بطرس الرسول بسردها بدقة تمثل في الحقيقة أخلاقيات الغنوستيين في العصر الرسولي وما بعده.

وأوضح ما في تعاليم هذه الشيعة هو «إنكار الرب» آتياً بالجسد، والحرية المفسدة للأخلاق. وهذا يوضحه القديس يوحنا الرسول في رسالته «قد دخل إلى العالم مُضلُّون كثيرون لا يعترفون بيسوع المسيح آتياً في الجسد. هذا هو المضلُّ والضد للمسيح. أنظروا إلى أنفسكم لئلا نضيع ما عملناه... كل من تعدى ولم يثبت في تعليم المسيح فليس له الله. ومن يثبت في تعليم المسيح فهذا له الآب والإبن جميعاً.» (٢ يو٧—٩)

وهكذا، و بوعي الرسل الشديد و بسهرهم على التعليم الذي استلموه من الرب

الذي لخصه لهم في «**قانون الإيمان**» ليكون لهم معياراً ثابتاً ومفيداً لهم في صدامهم مع العالم، استطاعوا أن يواجهوا عواصف الغنوستية في مبدئها والتي جاهدت باستماتة لجذب المسيحية إلى الوثنية. وكان هذا الإحساس بالخطر واضحاً في ذهن الرسل و بالأخص لدى القديس يوحنا الرسول حينما قال:

ـ «انظروا إلى أنفسكم لئلا نضيّع ما عملناه...»

ـ «إن كان أحد يأتيكم ولا يجيء بهذا التعليم (قانون الإيمان) فلا تقبلوه في البيت ولا تقولوا له سلام، لأن من يسلّم عليه يشترك في أعماله الشريرة.» (٢يو٨و١٠و١١)

وحينما رقد القديس يوحنا الرسول، ختم على العصر الرسولي كله بل ختم على القرن الأول للمسيحية، وانطلق إلى صدر من أحبه، يحمل له أخباراً سارة عن نصرة الكنيسة في جهادها ضد العالم كما سلمها الرب لهم.



الفصل الثامن

نمو التقليد التفسيري بعد عصر الرسل

لمواجهة نشاط الغنوسية الهائل

□□□

يتّسم القرن الثاني للمسيحية بالنشاط الهائل للهرطقات الغنوسية في الشرق والغرب.

وقد استطاعت الغنوسية أن تنشط وتنمو في البيئات المسيحية، إذ وجدت فيها مجالاً خصباً للتأملات العقلية.

وقد تبنت الغنوسية كافة المشكلات اللاهوتية العويصة التي في المسيحية وبدأت تضع لها حلولاً فلسفية تأملية غاية في الدقة المنطقية والخداع، حتى بدت الغنوسية وكأنها تطور شامل للمسيحية على أسس فلسفية عقلية.

ولكن لم تبقَ الغنوسية مدرسة واحدة، بل انقسمت إلى ثلاث مدارس اتسمت كل مدرسة باتجاه فكري فلسفي روحي معين، وكان لكل مدرسة أئمة وتلاميذ! ... ومن هنا اتسعت دائرة المبادىء والنظريات وانتشرت وتكاثرت بصورة خطيرة لأنها كانت تُعنى بالمشاكل المسيحية اللاهوتية التي لم يكن يطرقها أحد من قبل، فبدأت الغنوسية تشكل خطراً داهماً على الكنيسة وبدأت تبتلع أعاظم المعلمين والعباقرة،

و يـكفي أن نعرف أن القديس أغسطينوس ظل يتبع إحدى شيعها المتفرعة منها وهي «المانية Manichians » عدة سنوات .

وقـد استوعب القديس إير ينيئوس بحث هذه الهرطقة في خمسة كتب خصصت معظمها لهدم نظر ياتهم(1)، كما خصص لهم القديس هيپوليتس تسعة كتب يوجد منها الآن سبعة . (2)

وكانت هذه الهرطقة تتركز في ثلاث مدارس حسب التقسيم الجغرافي :
المدرسة الأولى : الغنوسية الإسكندر ية وكانت صبغتها أفلاطونية وأئمتها هم : باسيليدس ، فالنتينوس ، أوفيتس .

المدرسة الثانية : مدرسة سور يا وكانت متشبعة بوثنية (زورستر) و بالأخص المبدأ الثنائي ، وأئمتها : ساتورنينوس ، بارديسان ، تاتيان .

المدرسة الثالثة : مدرسة آسيا الصغرى وإمامها : مارقيون ، وهو من أخطرهم .

ولكن حسب التقسيم اللاهوتي (الكاذب)، فتنقسم أيضاً إلى ثلاث مدارس :
الأولى :
وهذه تميل إلى الوثنية . وهم السيمونيون (أتباع سيمون الساحر). والنيقولاو يون (أتباع نيقولاوس المذكور في سفر الرؤ يا). والأفيتيون والكار بوكراتيون والبروديسيانيون والأنتيتاكتيون والمانيون .

الثانية :
وتميل إلى اليهودية : وهم الكيرنثيون (أتباع كير ينثوس ، المعاصر للقديس

(1) Iren., Adv. Haer. I, II, III, IV, V.
(2) Hippolytos A.N.F., vol. V. Refutation of all Heresies.

يوحنا الرسول) وباسيليدس وڤالنتين والكليمانتيون المز يفون (الذين يدعون أنهم أتباع كلمندُس أسقف روما وتلميذ القديس بطرس ورفيق القديس بولس).

الثالثة:

وتميل إلى المسيحية وهم ساتورنينوس، تاتيان، انكراتيس.

ولكن المدارس الثلاث، بالرغم من ذلك، يغلب عليها العنصر الوثني الشيطاني لإستخدامهم قوته فعلاً بالسحر.

وكذلك يمكن تقسيم الغنوسية أيضاً إلى ثلاث مدارس بالنسبة للمنهج الفكري الأخلاقي:

الأولى:

تأملية ثيئوصوفية (مزج اللاهوت بالخبرة الباطنة) وزعماؤها باسيليدس وفالنتين.

الثانية:

نسكية تشاؤمية متحفظة نوعاً: مارقيون، ساتورنينوس، تاتيان.

الثالثة:

إباحية منحلة متسفلة: السيمونيون، النيقولاو يون، الأومنيثيون، الكر بوكراتيون، والأنتيثاكتيون، والماركوسيون.

ولأن الغنوسية تعتمد على العقل والتأمل، لذلك فانتشارها في وسط المسيحيين كان بين المثقفين والقادة. وهكذا بدأ الخطر يهدد الكنيسة من جهة رؤسائها. لذلك نجد أن كتاب قوانين الرسل (القانون رقم ٥٠ و٥١) يوجه اهتمامه نحو الأساقفة والكهنة والشمامسة، ثم أخيراً العلمانيين لخطورة إتباع تعاليم الغنوسية:

[أيما أسقف أو قسيس أو شماس أو أي إكلير يكي يمتنع عن الزواج أو أكل اللحم أو الخمر ليس بسبب إنكار الذات وإنما بحجة الإزدراء بها متجاهلاً أن الله خلق كل شيء حسناً وأنه خلق الإنسان ذكراً وأنثى ، فهو إنما يجدف على الخليقة ، فإما يُقلع عن خطئه وإما يسقط من رتبته و يُقطع من الكنيسة . والعلماني يجرى عليه الأمر كذلك .]

ولم تكن الخطورة في الأكل والشرب ، ولكن ما يكمن وراءها من تعاليم إيمانية غاية في الضلال . وخطورتها لا تبدو ظاهرة في منطوقها وألفاظها ولا في معانيها لأنها تسلك منهجاً منتظماً يوافق التفكير الطبيعي و يتمشى مع المنطق ؛ ولكن الخطورة تكمن في الغاية النهائية التي لا تفصح عنها التعاليم قط بل لا يكتشفها أي إنسان إلا بالإلهام الروحي القادر أن يفضح أعمال الشيطان . فهي تنكر الإيمان بلاهوت المسيح إنما بدون تصريح ، وتنكر ميلاده الفائق ، وتنكر تجسده إنكاراً باتاً . وقد اعتمدت في تقريرها ذلك على النسخة اليهودية التي ترجمها ثيئودوتيون الأفسسي اليهودي « الدخيل » سنة ١٨١م ونسخة أكويلا البنطي اليهودي الدخيل أيضاً سنة ١٢٩م اللتين فيهما ترجمة نبوة إشعياء بخصوص « حبل العذراء » أنه « هوذا آمرأة تحبل وتلد » . وقد أخذت عنهما كل الهرطقات اليهودية والغنوسية على أن المسيح هو آبن يوسف من زرع بشر . فحرموا أنفسهم من روح النبوة في العهد القديم ومن نعمة المسيح في العهد الجديد . (٣)

وهي لا تؤمن بالتالي بالآلام ولا بالقيامة بل تحسبها مجرد شبه أو خيال خادع ، كل ذلك تعظيماً للروح وتحقيراً للمادة .

وهي لا تؤمن بالخلاص بالفداء الذي أكمله على الصليب ، كما يُفهم من سياق

(3) Iren., Adv. Haer. III. 21.1.

رسالة القديس الشهيد پوليكارپ أسقف سميرنا: [وكل من لا يعترف أن يسوع المسيح قد جاء في الجسد فهو الضد للمسيح. وكل من لا يعترف بشهادة الصليب فهو من الشيطان، وكل من يفسد نبوات المسيح من أجل شهواته و يقول إنه ليس قيامة ولا دينونة فهو آبن الشيطان البكر، لذلك فلنتحاش ضلالة الكثيرين وتعاليمهم المغشوشة ولنعُدْ إلى الكلمة (قانون الإيمان) التي تُسلِّمت لنا منذ البدء.] **القديس پوليكارپ، رسالة فصل ٧.**

ولكنها، بطرق ملتوية، تؤمن بالفداء والخلاص إنما في نظريات علمية محبوكة متسلسلة، لو قَبلتَ أُولاها تورطت في نهايتها. ونظرياتها لها صورة الحق إذ أنها تستخدم المسيح لتجعله مكملاً لها وليس أساساً فيها. وكل حلولها للمعضلات اللاهوتية تقوم على الثنائية فهي تؤمن بوجود إلهين: واحد علوي والآخر سفلي، وعالمين: واحد روحاني صالح والآخر مادي «هيولي» شرير يكمن فيه الشر، وهما في صراع دائم وإلى الأبد. وتؤمن بوجود وسيطين واحد بين العالم العلوي والعالم السفلي وواحد بين العالم السفلي والعالم العلوي. وتؤمن أن يسوع المسيح أقنومين: واحد روحاني علوي وواحد مادي سفلي إتصلا معاً أثناء العماد وافترقا قبل الآلام (ڤالنتين).

وكان أهم مقاصد الغنوسية غزو المسيحية كلها لرفعها إلى ديانة التأملات الثيئوصوفية الخالصة والإنهاء على كافة الممارسات الجسدية والمادية، وقد انتمى لها كثير من المسيحيين وظلوا مندسِّين داخل الكنيسة فأدخلوا كثيراً من اصطلاحاتها وعاداتها المفسدة.

والغنوسية تبلورت أخيراً في القرن الثالث على يد ماني الفيلسوف الفارسي في أخطر أشكالها وهي «المانية»، إذ وصلت فيها إلى غاية الحبك والنظام والنهج

التسلسلي والتي دخلت في صراع سافر ضد المسيحية، فكان لها أساقفة وكهنة وكنائس وأبروشيات برمتها، مدعية أنها دين سماوي وأنها ذات تراث وتقليد ووحي وإعلانات ومعجزات ورؤى ورئاسات كنسية، وأنها مسيحية ناهضة. وقد ملأت أرجاء بلاد تركستان وما بين النهرين وشمال أفريقيا وصقلية وإيطاليا وأسبانيا، وتوطنت في شمال أفريقيا، وظلت حتى القرن السادس.

أما سبب الإقبال عليها، فلتزييفها المبادىء المسيحية، حتى أصبحت ذات صبغة مسيحية تبدو كاملة. هذا بالإضافة إلى أسلوبها الفلسفي السري في كشف وتوضيح المعضلات المسيحية، وأهمها معضلة الخير والشر ومظاهر القداسة النسكية في مبادئها وممارساتها وعبادتها المنتظمة وطقوسها. وقد ظل القديس أغسطينوس مسحوراً بعمقها وجمالها تسع سنوات قبل أن يتعمد و ينضم للكنيسة.

ولكن كل هذه الأزمنة التي قضاها هذا الفيلسوف والمتصوف القديس في هذا التيه لم تذهب سدى، فقد كانت بمثابة بعثة داخلية لدراسة كل عوارها وضعف أسرارها المزيفة. ولقد اختار الله القديس أغسطينوس للتجسس على المانية تماماً كما اختار القديس بولس للتجسس على الفريسية. ومن هذه الدراسة انطلق الفيلسوف القديس يكتب و يؤلف و يشرح و يفسر و يوضح الإيمان الأرثوذكسي في كافة النواحي التي أصيب هو شخصياً فيها، فأخصب إيمان الكنيسة بتفاسير عقائدية قطع بها خط الرجعة على الغنوسية عموماً وعلى المانية خصوصاً كما فتح بها مجالات للعبادة والتأمل لا تزال الكنيسة كلها تتمتع بها.

لقد دخلت الكنيسة منذ القرن الثاني في حرب فكرية لاهوتية شديدة وقاسية ضد الغنوسية أولاً ثم المانية أخيراً، ولكنها خرجت منتصرة بقيادة الروح القدس الذي هو، حسب وعد الرب «يرشدكم إلى جميع الحق» (يو١٦: ١٣)!!

لقد امتد عمق الكنيسة في الفهم والمحاجاة والدفاع والإقناع والهجوم لإظهار صحة الإيمان والحق على المستوى الفكري والعقلي لقطع الطريق على الهراطقة. ولكنها كانت هي أيضاً في حاجة إلى هذا الإمتداد فقد جاء دور حرب الهراطقة في زمنه المحدد والمعين من الله لخير الكنيسة.

ولكن ليس معنى هذا أن الحق الذي في الكنيسة والذي استلمته في تقليدها الرسولي كان ضعيفاً أو ناقصاً أو غير كافٍ للإيمان والخلاص والعبور للحياة الأبدية بواسطة دم المسيح المسفوك على الصليب، ولكن كان العالم الجاحد في حاجة إلى مزيد من التفسير ومزيد من التوضيح بسبب ضلالة الشيطان الذي ظل دائماً يقاوم سبل الله المستقيمة!!

لقد دخل التقليد الرسولي **الذي كان عاملاً بالإيمان فقط** إلى طور جديد من أطواره **لكي يكون عاملاً بالفكر أيضاً** λογικότερον وهو الذي نسميه الآن بـ«اللاهوت النظري».

فبعد أن كان **يكفي فقط أن نفهم قانون الإيمان لكي** نمارسه ونعترف به في المعمودية، أصبح يلزم بعد أن دخلت الكنيسة في الصراع الفلسفي العلمي العقلي مع الغنوسية والمانية أن نفحصه ونناقشه ونبرهن عليه، لا لكي نقاوم الهراطقة فقط ونتقيهم بل لكي يصير إيماننا أيضاً مخصباً بالبرهان الفكري لإشباع العقل الإيجابي، لأن العقل الخاضع للإيمان يصير جزءاً من القلب!!

لقد دخل التقليد في صياغات جديدة مهمة وخطيرة يشرح بها ليس الإيمان فقط بل اتجاهاته العقائدية. فقد لزم أن يحدد مفهوماً واضحاً للفداء والخلاص وتعليماً محدداً قاطعاً عن علاقة الآب بالإبن، وعلاقة الروح القدس بالآب والإبن، ووحدانية الله في جوهره الإلهي، وعن خلقة العالم، وعلاقة الله بالمادة، وعلاقة الخير

بالشر، وعن الخطيئة الأصلية...إلخ. كل ذلك على أصول التقليد الأولى وبمقتضى ما جاء بالوحي المقدس في الأسفار المكتوبة. لقد امتد التقليد التفسيري بذلك وأصبح عليه عبء هائل من الإيضاحات في كافة نواحي اللاهوت التي عبث بها الغنوسيون والمانيون.

دور مدرسة الإسكندرية في إخصاب التقليد التفسيري:

لقد تقسمت هذه المهمة العظمى، مهمة تفسير دقائق الإيمان العقائدي بين الشرق والغرب. فوقع نصيب الشرق على مدرسة الإسكندرية (٤)؛ ووقع نصيب الغرب على شمال أفريقيا: قرطاجنة. ومثَّل مدرسة الإسكندرية كلٌّ من أوريجانس وكليمندس، وانتحوا في تفسيراتهم ناحية المثالية النظرية ليواجهوا الغنوسية في واقعها وطبيعتها، فعالجوا المبادىء الموضوعية التي تختص بالثالوث والمسيح والتجسد، جاهدين أن يقتلعوا التعاليم الغنوسية المزيفة من جذورها ويزرعوا في حقل الكنيسة البكر المعرفة الحقة الصادقة بروح الفلسفة الأرثوذكسية التي تستقر على إيمان مسيحي واقعي عملي صادق.

ولكن كان من العسير أن يفلت هؤلاء العمالقة الروحيون من التعثر في كثير من الإتجاهات الأفلاطونية فأخذوا بها، وهذا خطأ وأمرنا لله.

وقد اضطلع بهذه المسئولية عينها في الغرب ترتوليان وكبريان، وكان لاهوتهم أكثر مثالية وعملية. وقد اختصوا في المبادىء اللاهوتية التي تعالج الطبيعة البشرية والخلاص، وكانوا أكثر عنفاً وبأساً على الغنوسية وفلسفتها، لأنهم انتحوا الناحية الأخلاقية بشدة.

---

(٤) لقد ازدهرت مدرسة الإسكندرية منذ سنة ١٥٠م حتى آخر القرن الرابع ولم تنطفىء شعلتها قط. ولكنها حُجبت تحت الإضطهاد.

وأظن أن السبب في هذا التباين بين الغرب (شمال أفريقيا) وبين الشرق (الإسكندرية) كان مرجعه أن الذين اضطلعوا بالمهمة كانوا في صناعتهم فلاسفة في الإسكندرية، بينما كانوا محامين في قرطاجنة.

ولكن قام في فرنسا مناضل بارع، شرقي في منبته ولغته، غربي في خدمته ومسئوليته، وهو القديس إيرينيئوس أسقف ليون ــ في زمن سابق على الإسكندرية وقرطاجنة.

وقد كان في دفاعه وهجومه وفي تفسيره وشرحه متوسطاً بين المدرستين، وقد مثَّل الأرثوذكسية الكنسية بتقليدها الرسولي تمثيلاً بارعاً وكاملاً، وحُسب أعظم مَنْ خدم الكنيسة في الميدان التقليدي وحِفْظ الروح الرسولية في كل زمان ما قبل نيقية!!

وقد كان شديد الوطأة على الغنوسية، واضحاً حاداً، لم يلجأ قط للمنهج التصوُّري، أما كتاباته التي كتبها ضد الهراطقة ما بين عامي ١٧٧ و١٩٢م فهي تُحسب قمة الأعمال الجدلية التي أنتجتها الكنيسة في القرن الثاني، وهي كلها تقطر بدسم الإنجيل ودسم التقليد، وكل من يقرأها يظن أنه يقرأ شيئاً كُتب في القرن العشرين!!

وقد فنَّد في هذه الكتابات كل المبادىء اللاهوتية المزيفة التي وضعها الغنوسيون، بل فنَّد مدارسهم واحدة فواحدة؛ وفضح قصورهم اللاهوتي بل وقصورهم الفلسفي في رصانة إنجيلية رائعة.

فقد أوضح الإيمان الأرثوذكسي بوحدانية الله، وخلقة العالم، وتجسد الكلمة تجسداً حقيقياً ولاهوته الحق، ووحدة الأسفار في العهدين القديم والجديد وفي قيامة

الأجساد، وحياة الدهر الآتي. لقد كان القديس إير ينيئوس عند الغنوسيين شيئاً لا يُطاق.

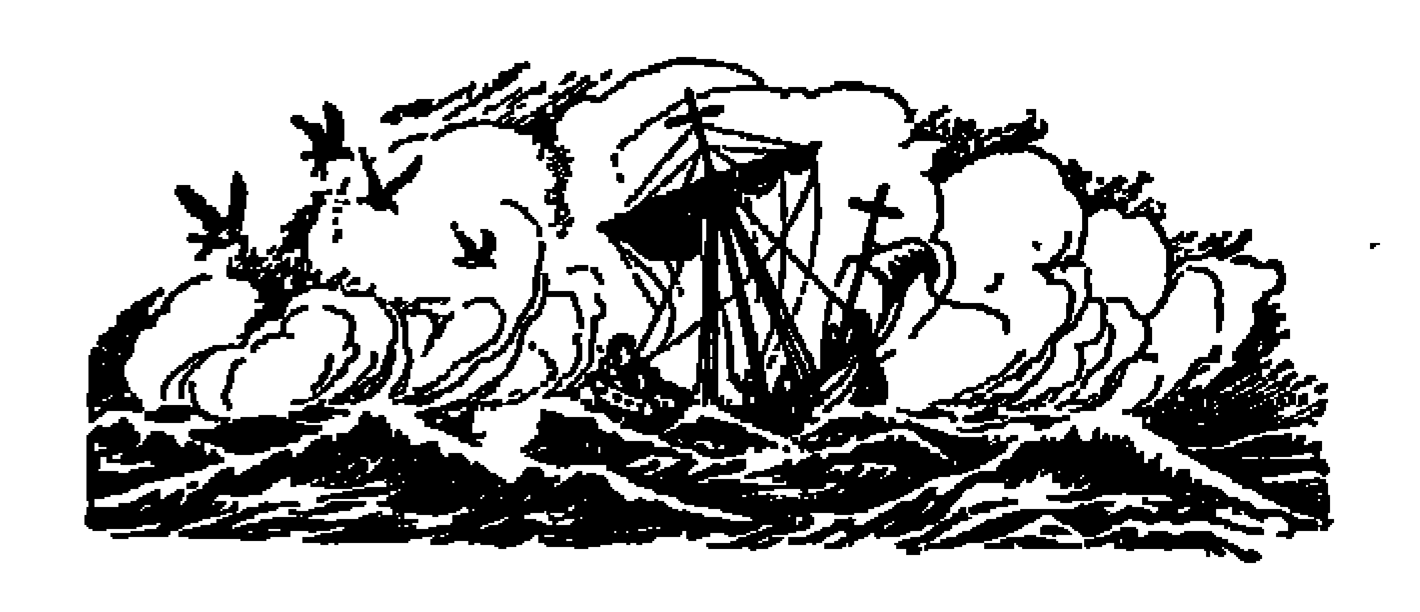
وقد خلفه في هذا الميدان تلميذه هيپوليتس، وقد تتبع الهراطقة حتى الأصول الوثنية التي استمدوا منها سرقاتهم اللاهوتية.

وهكذا تثبَّت قانون الإيمان بألفاظه الأولى وتعابيره الرسولية هو كما هو، مُضافاً إليه تفاسير مضيئة تفتح المجالات للتعمق في حكمة الله إلى ما يشاء الله.

فبعد أن كان يقرأ الإنسان: «بالحقيقة نؤمن بإله واحد الله الآب ضابط الكل خالق ما يُرى وما لا يُرى» و يؤمن دون أن يسأل، أصبح يمكنه الآن أن يؤمن و يسأل، كيف أن الإله واحد وهو نفسه آب وآبن وروح قدس، وكيف خلق الله العالم؟ وما صلته بهذا العالم؟ وهل لله علاقة وثيقة بنا وكيف؟ وحينئذ يجد عند مدرستي الإسكندر ية وقرطاجنة، والقديس إير ينيئوس والعلاّمة هيپوليتس وغيرهما ممن جاد الله بهم على كنيسته تفسيراً واضحاً مشبِعاً للروح والعقل.

بهذا الجهد الذي بذلته الكنيسة بعد معاناتها من الغنوستيين والمانيين، انطلقت بتقليدها الرسولي عَبْر الأجيال المتتابعة تطفر فوق قمم جبال النور، تسلمه من يد ليد هو كما هو بغير عثرة ولا عيب ولا غضن ولا شيء من مثل هذا.

ولكنها توقفت في الطر يق مراراً لتز يد من نور شعلتها كلما واجهتها عواصف الظلمة أكثر.



الفصل التاسع

التقليد التفسيري يجمع شمل الكنيسة ويحفظها من الإنقسامات الداخلية

□□□

كانت يقظة الآباء الرسوليين (القرن الثاني) والأساقفة الذين تسلموا منهم الكنيسة حسب التقليد الرسولي، ووقوفهم ضد الهرطقات اليهودية والغنوسية والمانية في القرنين الثاني والثالث بتفسيراتهم للتقليد الرسولي في كتاباتهم ورسائلهم ودفاعهم المجيد عن قانون الإيمان، كان هذا كفيلاً بعرقلة نمو البدع والهرطقات تماماً، حتى إنه في بداية القرن الثالث ابتدأ ينقلب ميزان القوى بسبب هذه اليقظة، فارتدت الغنوسية والوثنية الجبارة على أعقابها ووقفت تدافع عن نفسها، ولكن ببزوغ القرن الرابع سقطت عظمة الوثنية ومعها الهرطقات التابعة:

أولاً: بسبب قدرة الإيمان المسيحي وما كان يسنده من مؤلفات فاقت في قوتها ورصانتها وأسلوبها الفلسفي والمنطقي والروحي كل كتابات الوثنية وفلاسفتها.

وثانياً: نبذ الدولة اليونانية والرومانية للوثنية كدين للدولة واحتضانها للمسيحية، وهذا ولو أنه ظهر من وجهة العدل أنه تحيُّز للمسيحية وأن الضربة الأخيرة التي سددتها المسيحية للوثنية وهرطقاتها كانت بيد وبسلطان الحكومات، وليس بالمنطق والمحاجاة أو برهان الروح؛ إلا أن هذا مردود عليه، لأن الوثنية

كانت سابقاً وأصلاً ديناً للدولة، فكون الدولة تنبذها وتقبل المسيحية فهذا برهان ضمني على تفوّق المسيحية جذرياً من جهة المنطق والمحاجاة والروح والله وكل شيء!! وهذا بفضل تقليدها الرسولي الرصين.(١)

ولكن هذا لم يعدم قيام هراطقة من داخل الكنيسة نفسها من المسيحيين المنتمين لتقليدها المقدس والذين كانت لهم درجات كهنوتية ورئاسة، الذين ازعجوا الكنيسة في كل مكان. فالشيطان الذي ألقى بذار التعاليم المزيفة وأضلّ فكر الشيع اليهودية والغنوسية خارج الكنيسة، استطاع من حين لآخر أن يلقي نفس البذار داخل الكنيسة لعله يشقها من الداخل.

***

وأولى هذه الهرطقات «الداخلية» **كانت هرطقة المقاومين للثالوث الأقدس** الذين كانوا يُدعَون باسم Monarchians أي «الموحّدين بالله»، وهي أصلاً من كلمة يونانية أرثوذكسية أصيلة كان يستخدمها الآباء بالنسبة لله الآب، بصفته الأصل الواحد الذي وُلد منه الإبن وانبثق منه الروح القدس: μοναρχία أي وحدة الرأس أو الرئاسة أو البداية. ولكن استخدام هؤلاء المراطقة لهذه الكلمة أفسد معناها التقليدي. كما كانوا يُسمَّون أيضاً باسم «موحّدي الثالوث» Unitarian.

وهذه الهرطقة انقسمت إلى قسمين:

الأول: ينكر لاهوت الإبن ولاهوت الروح القدس مطلقاً، حيث اعتبروهما

---

(1) Ph. Schaff., op. cit. III, ch. 10, 11.

قوتين من قوات الله ، وأن المسيح لم يكن أكثر من إنسان حلّت فيه قوة الله ، وهذه الشيعة تحمل رجعة إلى اليهودية « الإيبونيم » . (٢)

الثاني: يؤمنون بلاهوت الإبن ، ولكن باعتبار الآب والإبن مجرد ظهور ين متعاقبين لله الواحد ، وهذه رجعة إلى الغنوسية الدوسيتية (الدوسيتيزم Docetism) وهي « الشَبَهية » ، أي أن التجسد ليس حقيقة بل هو وهم وخداع ، فلم يكن جسد ولا آلام ولا صلب وإنما شُبّه لهم .

وأئمة القسم الأول من هذه الهرطقة هم :

ــ ألوجي Alogi من آسيا الصغرى وقد نبذ إنجيل يوحنا كله وسفر الرؤ يا ، وقد حوكم وقُطع سنة ١٧٠م .

ــ ثيئودوتس Theodotus من بيزنطة وكان له أتباع في روما ــ حوكم وقطع (١٩٠ــ٢٠٢م).

ــ آرتمون في روما ــ حوكم وقطع (٢٠٢ــ٢١٧).

ــ بولس السَمُسَاطي (٢٦٠م) أسقف أنطاكية وقائد مدني في نفس الوقت للملكة ز ينو بيا ملكة بالميرا . وهو أخطر هؤلاء الهراطقة جيعاً لكونه كان أسقفاً لإحدى كبر يات كنائس الشرق . وقد سبب انزعاجاً عظيماً لكل سور يا . وحكم عليه مجمع محلي (١٨٠ أسقفاً) وقُطع . و بسقوط بولس السَمُسَاطي عدو الثالوث القدوس سقطت بدعة « المونارخيين » « الموحّدين بالله » .

وأئمة القسم الثاني من هذه الهرطقة:

وهؤلاء هم الذين قالوا بأن الإبن هو الآب نفسه ، فالله الآب باتضاعه تجسد ،

---

(٢) راجع صفحة ١٠٦ من هذا الكتاب .

أي أن المسيح لا يوجد له آب فهو الله الوحيد، وقد أسْمتهم الكنيسة لذلك باسم «مؤلّمي الآب Patripassian».

وقد لاقت هذه الهرطقة مساندة بعض الوقت من كرسي روما نفسه(٣):

١ ـ **براكسياس** Praxeas من آسيا الصغرى ورحل إلى روما في زمان مرقس أوريليوس. وقد هاجمه ترتليان ببراعة ودعاه «حامل رسالة الشيطان المزدوجة» الأولى أنه مطارد للروح القدس والثانية أنه صلب الآب.

٢ ـ **نوئيتوس** Noetus من سميرنا (٢٠٠م). ذاعت شهرته في روما ووجد تعضيداً هناك.

٣ ـ **كاالليستوس** Callistus I بابا روما (٢١٨ـ٢٢٤)، تبنّى تعاليم نوئيتوس وعلّم بها قائلاً إن الإبن هو مجرد ظهور للآب في شكل بشري. فالآب والإبن والروح القدس شيء واحد، أسماء لشخص واحد. وكان له أتباع يُلقّبون بـ«الكاليستيين»، هؤلاء أزعجوا كنيسة روما في الربع الأول من القرن الثالث، وقد قاومه هيپوليتس مقاومة عنيفة.(٤)

[ونوئيتوس Noetus الذي من سميرنا... طلع علينا بهرطقته التي نقلها عن إبيجونوس Epigonus ووصل بها إلى روما... وقد أيدها كاليستوس وخرج منها بهرطقة خاصة به، ولكنها مستمدة من هرطقة النوئيتين... و يقول إن الله الآب خالق الكون هو الذي تسمى أيضاً بالإبن... وهذا الشخص الواحد هو مقسّم إسمياً فقط.](٥)

و بعد موت كالليستوس انتهت هذه الشيعة نهائياً من روما.

(3) Ph. Schaff., op. cit. II 577.

(4) Ibid., 578.

(5) Hippol., A.N.F. V, Refutation of all Heresies, I, 23.

٤ ــ **بريللوس** Beryllus أسقف بصرة ببلاد العرب (بالقرب من بترا جنوب البحر الميت ــ البطراء الآن) يذكره يوسابيوس(٦). وقد ذهب إليه أوريجانس العلاّمة المصري وأقنعه، فتاب عن خطئه، وشكر أوريجانس. وتُعتبر هذه من المحاكمات النادرة التي انتهت بالسلام و ببناء الكنيسة.

٥ ــ **سابيليوس** Sabellius كان أقوى وأشد وأذكى خصم للثالوث الإلهي في كل زمان ما قبل نيقية. وكانت طريقته ومنهجه من أخطر التعاليم التي واجهتها الكنيسة، لذلك فكانت تختفي وتظهر من خلال الأجيال حتى القرن التاسع عشر، فقد تبنى نظرية سابيليوس ضد الثالوث العلاّمة اللاهوتي الألماني شلير ماخر!

و يُظن أن سابيليوس كان من ليبيا (المدن الخمس). وقد ذهب إلى روما واستماله كاليستوس الأول بابا روما إلى بدعة مؤلّمي الآب Patripassianism. وفي سبيل ذلك، أذاع سابيليوس في روما بدعته الخاصة، كما أذاعها في المدن الخمس (كانت تابعة لمصر)، ولكن البطريرك ديونيسيوس الإسكندري حاكمه وقطعه سنة ٢٦٠م.

وعندما استغاث أتباعه ببابا روما الذي كان أيضاً يسمي ديونيسيوس (وهو من أصل يوناني) حكم بقطعهم (٢٦٢م) وأصدر بيانه الأرثوذكسي الذي أشار إليه القديس أثناسيوس في كتاباته، الذي يقول فيه بعدم قبول تقسيم اللاهوت الواحد إلى ثلاثة آلهة ولا جعل الإبن هو الآب وملاشاة الثلاث أقانيم «فالثالوث ينبغي أن يُدرَك في وحدة اللاهوت». (٧)

وقد أدخل سابيليوس في محاولاته لملاشاة عقيدة الثالوث أقنوم الروح القدس،

---

(6) Hist. Ecc. VI 33.

(7) Athanasius, De Sant. Dionys. C. 4.

معتبراً أن الثالوث هو مجرد ثلاثة ظهورات أو استعلانات لشخص الله الواحد بدون تغيير ذاتي، وأنه بعد تكميل الفداء عاد إلى وحدته الذاتية الأولى. فالآب هو استعلان الله في العهد القديم بإعطاء الناموس، والإبن استعلان الله نفسه في التجسد، والروح القدس استعلان الله نفسه في الإلهام. واستعلان الإبن انتهى بالصعود وبقي استعلان واحد لله هو الروح القدس للتجديد والتقديس. والثالوث نفسه (كظهورات) هو مستحدث على الله، فالله لما خلق العالم لم يكن ثالوثاً، وكذلك فإن اللوغُس (الكلمة) ليس هو الإبن بل هو الله نفسه المتكلم، ولأن اللوغُس أكمل رسالته في العالم فإنه عاد إلى أصله وانتهى بذلك الثالوث.

وقد تتبع القديس أثناسيوس بدعة سابيليوس فوجدها ذات أصول رواقية فلسفية وثنية، وأنها تتوقف على صفة التضخم والإنكماش في طبائع الآلهة عند الرواقيين، وكذلك وجد أن هذه البدعة ذات صلة بالكليمنتية المزيفة التي ظهرت في القرن الثاني. (٨)

وكانت بدعة سابيليوس هي أول من فتح الطريق أمام الكنيسة في مجمع نيقية لتثبيت عقيدة الثالوث القدوس في ملء معناها الإلهي كثلاثة أقانيم قائمة دائماً أبداً من الأزل وإلى الأبد في الله الواحد ذي الجوهر الإلهي الواحد، عاملة معاً بانسجام كامل في الخلق والفداء والتقديس.

***

(8) Ph. Schaff., op. cit. II, ch. 152.

الفصل العاشر

دخول التقليد في عصر المجامع وتحديد أصوله بقوانين ثابتة

ΔΟΓΜΑ

□□□

[وبما أن كثيرين ممن يعترفون بالإيمان بالمسيح يختلفون الواحد عن الآخر ليس في الأمور البسيطة فقط بل وفي المواضيع ذات الأهمية العظمى، لذلك يبدو بناء على ذلك أنه ينبغي بالضرورة أن تُقرَّر حدود ثابتة وتوضَعَ قاعدة لا تقبل الخطأ بالنسبة لكل من هذه الأمور (الإيمانية)... حسب تعاليم الكنيسة المسلَّمة لنا بالتتابع الطقسي من الرسل والتي حُفظت في الكنائس حتى هذا اليوم. فالتعاليم التي لا تختلف عن التقليد الكنسي الرسولي هي وحدها التي تُقبل باعتبارها أنها حق.](1)

***

وكأنما بهذه الأقوال كان أوريجانوس يتنبأ بقيام عصر المجامع وتقنين كل نصوص الإيمان. ولكن ما يقوله أوريجانس كان من واقع الحاجة الملموسة إلى سلطان الكنيسة في أمور الإيمان الذي بدأت الحاجة ماسَّة إليه جداً منذ القرن

(1) Origen, De Princip. proem. I.

الثاني .

أما أقوال القديس فنسنت الذي من ليرين (٢)، فهو يصف قيمة التقليد الكنسي:

[وهنا ربما يسأل إنسان: إن كانت الأسفار المقدسة قد تحددت قانونياً وهي كاملة الآن وكافية في ذاتها لكل شيء بل وأكثر من كافية أيضاً، فما الحاجة أن نضيف إليها سلطان الكنيسة من جهة تفسيرها؟

والرد على ذلك هو إنه بسبب عمق الأسفار المقدسة صار مستحيلاً أن يفهمها الجميع وأن يقبلها الكل بمعنى واحد، فواحد يفهم الكلمات بطريقة والآخر بطريقة أخرى حتى بدت وكأنها قابلة أن تُشرح بطرق تساوي عدد الشراح أنفسهم. فنوفاتيان (المبتدع) يشرحها بطريقة، وسابيليوس بطريقة أخرى، وهكذا دوناتوس وأريوس وإينوميوس ومقدونيوس وفوتينوس وأبوليناريوس وبريسكليان وإيڤونيان وبيلاجيوس وسيلستيوس وأخيراً نسطوريوس. لهذا أصبح من الضرورة المحتمة بسبب هذه الإنحرافات الخطيرة المشوشة أن يفرض قانون يحدد شرح وفهم الأنبياء والرسل في إطار التفسيرات الكنسية الأصيلة الجامعة. على أن تُتخذ كافة الإجراءات والإحتياطات لكي نتمسك بالإيمان الذي ساد على **مدى الزمن**، وقبله

---

(٢) مات حوالي عام ٤٥٠م. ويُعتبر مؤسس «معيار» الحكم على ما هو تقليدي وما هو غير تقليدي في أمور الإيمان:

فالتقليد الإيماني يرسو على ثلاث دعائم:

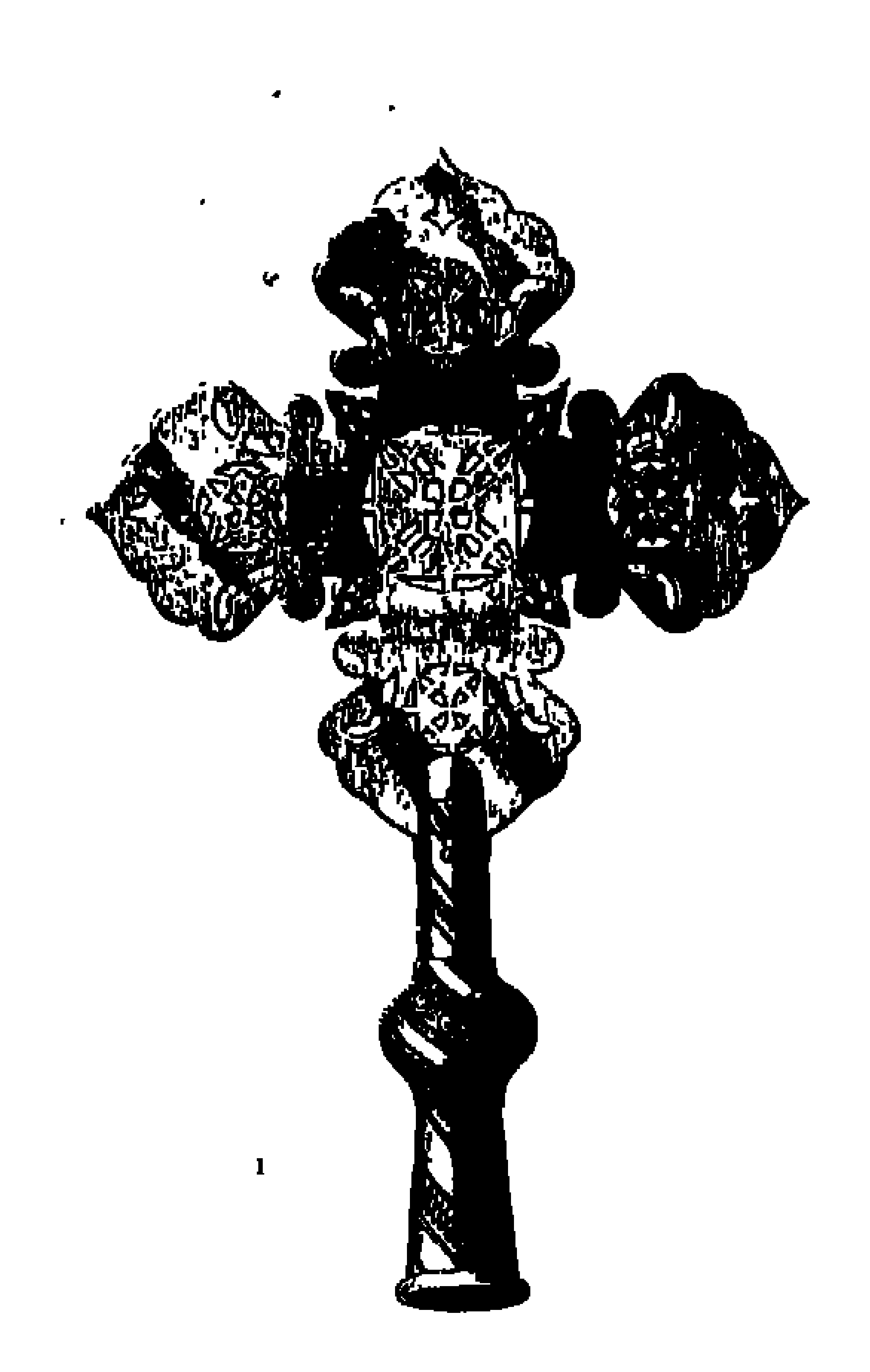
أولاً: الإيمان الذي ساد في كل مكان.

ثانياً: الإيمان الذي ساد في كل زمان.

ثالثاً: الإيمان الذي ساد على كل مسيحي.

وقد أخذت به الكنيسة، وسُمي «قانون ڤنسنت» فترة طويلة من الزمن. وهو راهب عاش في دير جزيرة Lerins، وتعيد له الكنيسة الغربية في ٢٤ مايو، ويُعتبر دير الليرين من تأسيس القديس كاسيان ربيب أسقيط مصر والمتلمذ على يدي الآباء الأقباط. لذلك يُعتبر القديس ڤنسنت تلميذاً لتعاليم كاسيان المستمدة من مصر.

الجميع، في كل مكان، فهذا حقاً يكون الإيمان «الكنسي الجامع» بالمعنى الدقيق.](٣)



(3) Vincent, A. com. ch. II, N.P.N.F., vol. XI.

التقليد الرسولي لقانون الإيمان وتفسيره
يدخل أدواره الحاسمة في المجامع المسكونية
ليصير عقيدة رسمية للكنيسة كلها

●●●

لقد تسبب صراع الكنيسة مع كافة الهرطقات قبل مجمع نيقية (عام ٣٢٥م)، في رفع التقليد الرسولي من جهة الثالوث القدوس والتجسد الإلهي إلى مستوى الحرارة والنور، وقد كانت قيادة الله وعنايته الفائقة ضابطة لكل الرياح العاتية والأمواج المخيفة التي كانت تلاطم سفينة الكنيسة، خصوصاً وأن معظم هجمات الهراطقة التي عانتها الكنيسة فيما قبل مجمع نيقية كانت تعضدها سلطة الدولة الوثنية. ولكن كان الحق يقود الكنيسة بقوة وحكمة لا تقاوَم.

وبمجرد دخول الدولة الرومانية في صف المسيحية، دخلت كافة المنازعات اللاهوتية دورها الحاسم، فلم يعد الصراع مفتوحاً للهراطقة كأقلية يمكنها أن تعكر صفو الكنيسة وتلوث إيمانها كيفما تشاء وإلى متى تشاء، فالكنيسة يمكنها أن تجتمع في رعاية السلطة الحكومية وتقرر قرارها بالإجماع فيما يختص بالإيمان، وحينئذ ينفَّذ بسلطة الإمبراطور.

ولكن لم يسمح الله لهذه السلطة الحكومية أن تقف في صف الكنيسة، إلا بعد أن استقرت الكنيسة تماماً على إيمانها ولاهوتها وعقيدتها تمام الإستقرار. فلم يشرق فجر القرن الرابع و يبدأ عصر المجامع المؤازَر بسلطان الإمبراطور إلا وكانت الكنيسة قد حددت قانون أسفار العهد الجديد، واستبعدت وحرمت كافة الكتب المزيفة التي زيفها الهراطقة منذ القرن الثاني تحت أسماء الرسل والآباء العظام والتي بثوا

فيها كل سموم عقائدهم، معتمدة في ذلك على وعيها الإيماني الناضج بسبب التقليد. و بذلك دخلت الكنيسة في دائرة القضاء الكنسي (والمدني) وهي معتمدة فقط على وثائقها المقدسة الطاهرة الإلهية.

كما أن الكنيسة في صراعها، الذي دام ثلاثة قرون مع الهراطقة من كل صنف، كانت قد تثبتت من قانون إيمانها الذي تسلمته من الرسل كأغلى وديعة وسلاح للإيمان، فصار بسبب المران المتواصل واضحاً ساطعاً لامعاً من كل ناحية وفي كل كلمة ومن جهة كل فكر. وهكذا اكتمل قانون أسفار العهد الجديد، أي تحديد أسمائها وعددها، مع قانون الإيمان الشفاهي التقليدي. على أن التقليد هو المفتاح الحق الذي يفتح مغاليق الأسفار المقدسة و يشرحها و يوضحها ويحرسها و يغلقها في وجه الهراطقة!

هرطقة آريوس ومجمع نيقية:

و بقيام هرطقة آريوس الإسكندري (٣١٨ــ٣٢٠م) التي فيها ينكر لاهوت المسيح معتبراً إياه مخلوقاً، معتمداً في ذلك على بعض أقوال للأسقف لوسيان الأنطاكي الذي كان يميل إلى تعاليم بولس السَمُسَاطي (عدو الثالوث)، ومعتمداً أيضاً على أقوال لأوريجانس تقول بأن الإبن مخلوق وليس إلهاً. وهكذا اعتُبرت هرطقة آريوس موجهة ضد الثالوث و بالتالي ضد التقليد الرسولي للإيمان. وقد كانت هرطقته ذات جذور في كل كنيسة، لأن بذار الشيطان أينما حطت يبقى لها بقية مهما اقتُلعت، كالحشائش الضارة في الأرض الجيدة.

لذلك نجد أنه قد انحاز لآريوس علناً في مجمع نيقية عشرون أسقفاً!! بقيادة يوسابيوس أسقف نيقوميديا! (الذي رجع عن تحيزه لآريوس وصار أسقفاً للقسطنطينية ثم بدأ يحارب مرة أخرى مقررات مجمع نيقية).

ولكن كل الذين انحازوا إلى آريوس علناً أو خفية كان تمسُّكهم منصبّاً على الأسفار المقدسة فقط ولم يأخذوا بالتقليد الرسولي «قانون الحق» كما استلموه من الرسل، فأثبتوا بذلك أنهم خائنون للوديعة المقدسة، خائنون لليد الرسولية، خائنون لأسقفياتهم! وأنهم ضلوا الطريق وتاهوا في مجاهل المراطقة وأنكروا لاهوت المسيح!! أما ألكسندروس بابا الإسكندرية فهتف أمام المجمع: «**إن العقيدة الرسولية نحن نموت من أجلها.**»(٤)

ووقف الثلثمائة والثمانية عشر أسقفاً الأطهار الأمناء على الوديعة الرسولية وأعلنوا بصوت الرسل وبصوت واحد أن المسيح «مساوٍ للآب في الجوهر، إله حق من إله حق، نور من نور، مولود غير مخلوق»!! وحكم على آريوس وعلى مَنْ تحيز له كعدو للمسيح وأُحرقت جميع كتبه ونُفي مع جماعته.

وبذلك اعتبرت الكنيسة أن مجمع نيقية هو الثاني والمساوي لمجمع الرسل في أورشليم (أع١٥). وقد أسماه القديس أثناسيوس: «**وثيقة حقيقية وشهادة للنصرة فوق كل هرطقة**»(٥)؛ كما أسماه القديس إيسيذور المصري الذي من بليوزيوم (تنيح عام ٤٥٠م، وله ٢٠٠٠ مصنف في النسك واللاهوت ومن أعاظم النساك) قال: «**المجمع المسكوني النيقاوي هو تعبير عن إلهام الله في الكنيسة.**»(٦)

وكان القديس أثناسيوس الرسولي في كل دفاعه عن الإيمان ملتزماً حدود التقليد الرسولي الذي اختزنه في قلبه الكبير. وفي رسالته إلى سيرابيون يشرح له هذه الحقيقة بصورة أمينة:

---

(4) De Orat. c. 15, quoted by Ph. Schaff, op. cit. III, 619.

(5) Ph. Schaff III, 630.

(6) Ep. 1, IV p. 99, quoted by Ph. Schaff III, 341.

[وعلينا أن نعتبر هذا التقليد الذي هو تعليم وإيمان الكنيسة الجامعة، الذي منذ البدء، الذي أعطاه الرب، وكرز به الرسل، وحفظه الآباء، والذي عليه تأسست الكنيسة وقامت.]ـــ **الرسالة الأولى.**

وفي رسالته الثانية لسيرابيون يشرح له كيف ولماذا خرج أريوس ومن معه عن فهم الأسفار حسب الحق: [إن الآريوسيين فقدوا الرؤية العامة للأسفار الإلهية.]

وهنا كلمة «الرؤية العامة» σκοπός يرادفها عند القديس إيرينيئوس كلمة «النظرية العامة» ὑπόθεσις .

أي أن الإنسان الذي يريد أن يفحص عن الحق في الأسفار المقدسة يلزم أن يكون قد بلغ أولاً إلى الرؤية العامة لها في مجموعها الكلي، كتعبير القديس أثناسيوس؛ أو أن يكون قد حصل على الفكرة أو النظرية العامة الشاملة التي تقوم عليها الأسفار المقدسة، كتعبير القديس إيرينيئوس، حتى لا يخطىء في الحكم أو في تأويل الآيات المفردة. وهذا هو ما يقدمه التقليد لكل من يعيش مخلصاً للكنيسة ولآبائها أباً عن أب. أما الهراطقة والذين ينبذون عنهم تقليدها الأبوي فإنهم يفقدون الرؤيا الشاملة للأسفار كما يطبعها التقليد على البصيرة الروحية. ثم يعود القديس أثناسيوس و يوضح كيف سار في المعركة ضد أريوس ومن معه متمسكاً بالتقليد: [إنه حسب الإيمان الرسولي المسلَّم إلينا بالتقليد من الآباء قدمتُ هذا التقليد دون أن أستحدث عليه شيئاً من الخارج، فما تعلمته فهذا قد كتبته مطابقاً للأسفار المقدسة.]ـــ **الرسالة الأولى.**

و بإصدار المجمع الملتئم قانون الإيمان في صورته المفسَّرة الجديدة، انتقل قانون الإيمان الرسولي من وضعه التقليدي الحر ودخل في وضعه التقليدي العقائدي الملزم

محتو ياً في نصه على الأصل الرسولي مفسّراً النواحي التي هوجم فيها من الهراطقة وصار وثيقة الكنيسة الحية للإيمان التي تحمل صوت الرسل مع صوت آباء كثيرين مع دماء شهداء؛ التي بعد أن استكملت صورتها في مجمع القسطنطينية ومجمع أفسس أصبحت القانون الذي ينظم فكر الكنيسة ونشاطها وتطورها إلى مدى الأجيال!

ولكن ليس معنى ذلك أن يكف الهراطقة عن نشاطهم، فالشيطان قد تعاهد الكنيسة بالمحن حتى النهاية، إذ إن الأساقفة الذين تظاهروا بقبولهم مقررات مجمع نيقية بدأوا هجومهم المنظم بعد ذلك، مستخدمين نفس الوسيلة التي خذلتهم وهي سلطان الإمبراطور الذي أمر بنفي القديس أثناسيوس، وعاد وأفرج عن آريوس وساند الآريوسيين، [لأن السلطان الزمني هو أقرب دائماً ليد الشيطان وفكره.] ... ولكن الله سارع فساند الكنيسة. وقبل أن يتخذ قسطنطين الملك أي إجراء رسمي بإعادة آريوس، مات آريوس، ومات قسطنطين (الأول مات سنة ٣٣٦، والثاني سنة ٣٣٧). وكان قسطنطين قد تعمَّد لتوه من يد يوسابيوس النيقوميدي الآريوسي!!

وأفرج ابنه الإمبراطور الجديد قسطنطين الثاني سنة ٣٣٨م عن القديس أثناسيوس فاستُقبل كأعظم من إمبراطور(٧). ولكن عاد قسطنطيوس الذي كان آريوسياً عنيفاً هو وكل البلاط معه، فنفى القديس أثناسيوس ثانية.

وظلت المجامع المحلية الشرقية والغربية تتنازع القوى والغلبة بسبب سطوة آريوس وكثرة الأساقفة المنضمين له وبسبب مساندة الإمبراطور ونساء الإمبراطورية، فقد لملم الشيطان كل مناكيد الأرض لزعزعة قرارات مجمع نيقية،

---

(٧) كما يقول القديس غريغوريوس النزينزي. وكان الإفراج عنه في يوم ٢٣ نوفمبر سنة ٣٣٨م.

وحُكم على القديس أثناسيوس بالنفي، وعلى أسقف روما المناصر له ليبريوس وعلى هوسيوس أسقف قرطبة بأسبانيا، وكاد حسب الظاهر أن يخمد صوت الحق. ولكن هذا أمر مستحيل لأن الله ساهر على كلمته ليجريها!

ولكن بموت قسطنطيوس الإمبراطور والأسقف الوهمي الأريوسي (٣٦١م)، انفتح الطريق أمام الكنيسة لتستعيد حريتها، بالرغم من أن الإمبراطور الجديد كان هو يوليانس الجاحد (المرتد عن المسيحية). وقد دخل الميدان مع القديس أثناسيوس كلٌّ من القديسين باسيليوس وغريغوريوس النزينزي والنيصي، وكلهم كانوا مملوئين من كل حكمة الرسل وتقواهم، فلما مات القديس أثناسيوس سنة ٣٧٣ ترك الإيمان الأرثوذكسي النيقاوي في أيدي مقتدرة أمينة. وظلت الآريوسية بعد ذلك تتمتع بنضرة ظاهرية تحت حماية الإمبراطور الآريوسي ڤالنس (٣٦٤ـــ٣٧٨م) إلى أن تولى الحكم جراتيان الأرثوذكسي، فأمر بالإفراج عن جميع الأساقفة الأرثوذكس المنفيين، فكانت بداية النهاية للآريوسيين، وبعدها اعتلى العرش ثاؤذوسيوس الأول الكبير الذي تربى على الإيمان الأرثوذكسي النيقاوي والذي كان حكمه قوياً حازماً (٣٧٩ـــ٣٩٥).

وبدأ الإمبراطور في تطهير القسطنطينية من الأريوسيين، أساقفة وكهنة، ثم دعا إلى عقد مجمع مسكوني للإنهاء على الآريوسية وبقية الخلافات الكنسية، لأنه كان قد ظهر في أثناء هذه الفترة هرطقتان خطيرتان **الأولى** هرطقة تخص شخص المسيح، **والأخرى** تخص شخص الروح القدس:

١ ـــ هرطقة أبوليناريوس:

أبوليناريوس كان أسقفاً على اللاذقية، ومن المتحمسين ضد الآريوسية، وقد بدا له أنه لكي يجعل إتحاد الطبيعة الإلهية في الطبيعة البشرية إتحاداً لا يقبل الإنفصال أو التغيير من جهة، ومن جهة أخرى لكي يجعل بشرية المسيح غير قابلة

للخطيئة، ومن جهة ثالثة لكي يجعل الفداء والموت ليس من عمل الجسد فقط بل باشتراك اللاهوت أيضاً ليضمن فاعلية الكفارة، لجأ إلى حيلة عقلية وهي إنه جعل اللاهوت يتحد بالناسوت عوض النفس العاقلة البشرية، أي أن المسيح اتخذ طبيعة بشرية خالية من النفس العاقلة البشرية، وحل بلاهوته عوض هذه النفس العاقلة.

وبهذا يتم في نظر أبوليناريوس إتحاد غير منفصم من جهة، ومن جهة أخرى لا يكون المسيح قابلاً للخطيئة مطلقاً حيث أن مركز الخطيئة هو النفس العاقلة، ومن جهة ثالثة تكون آلام الرب ويكون موته عملاً مشتركاً بين الناسوت واللاهوت فيكون بذلك ذا قدرة إلهية على الكفارة.

وهكذا وقع أبوليناريوس في هرطقة التجسد غير الكامل الذي يجعل المسيح إنساناً ليس كاملاً.

٢ ــ هرطقة مقدونيوس:

كان التقليد الرسولي منذ البدء يعتبر الروح القدس ممجّداً مع الآب والإبن، وباسمه مع الآب والإبن تتم البركة ويتم التقديس والشهادة لله، وكانت المعمودية تُجرى باسمه مع اسم الآب والإبن، بل وتُجرى بفاعليته الخاصة حسب قول الرب في إنجيل يوحنا ٣. فلاهوت الروح القدس كان واضحاً جداً لدى الأتقياء.[٨] ولكن لم يكن قد تقرر بصفة رسمية أنه أقنوم مساوٍ للآب والإبن في الجوهر والمجد والكرامة والعبادة. ولكن بقيام بدعة آريوس وإنكاره لاهوت الإبن، امتدت

---

(٨) لقد أوضح كثير من الآباء منذ البدء إيمانهم بلاهوت الروح القدس مثل ديديموس في رسالته عن الروح القدس (ترجمها القديس چيروم)، والقديس أثناسيوس في رسائله الأربع لسيرابيون، والقديس باسيليوس، والقديس غريغوريوس في عظة ٣١ عن الروح القدس. والقديس غريغوريوس النيسي في عظته للموعوظين، والقديس أمبروسيوس في عظته عن الروح القدس Schaff, op. cit. III, 665.

هرطقته بطبيعة الحال إلى إنكار الروح القدس أيضاً. وهكذا انفتح الباب أمام مقدونيوس وأتباعه لإنكار لاهوت الروح القدس جهاراً. ومقدونيوس كان أسقفاً على القسطنطينية وكان نصف آريوسي.

ومنذ ابتداء سنة ٣٦٢ تكونت جماعته التي سميت بـ«محاربي الروح القدس» πνευματόμαχοι ، فقد اعتبر مقدونيوس ومن معه أن الروح القدس هو خادم مثل بقية الملائكة، ولأنه ليس إلهاً فهو مخلوق. وقد عقد القديس أثناسيوس مجمعاً بعد رجوعه من المنفى سنة ٣٦٢م وحرم كل القائلين بعدم لاهوت الروح أو المنكرين مساواته للأقانيم في المجد والكرامة والعبادة والجوهر. و بنفس هذا المعنى عُقد مجمع في روما تحت قيادة البابا داماسوس سنة ٣٦٦، وحرم كلاً من آريوس ومقدونيوس وثبّت عقيدة الثالوث بألوهية واحدة وجوهر واحد ومجد واحد وقوة واحدة.

مجمع القسطنطينية، سنة ٣٨١

●●●

وقد دعا إليه الإمبراطور ثاؤذوسيوس الكبير، وحدد أن لا يحضره إلا الأساقفة المؤمنون والمناصرون لمجمع نيقية، لذلك كان عدده محدوداً جداً (١٥٠ أسقفاً)، لأن الأساقفة المناصرين لنيقية كان قد شملهم الإضطهاد والتعذيب والموت فنقص عددهم للغاية.

وقد رأس المجمع أولاً ميليتيوس أسقف أنطاكية، لكنه مات أثناء انعقاده، فخلفه غريغوريوس النزينزي الذي استقال بإرادته، فترأسه أسقف القسطنطينية الجديد نكتاريوس.

وقد عني المجمع بتصفية كل الهرطقات وتوضيح الإيمان النيقاوي:

ــ فيما يختص بناسوت المسيح الكامل أي بوجود نفس عاقلة بشرية للمسيح، وذلك ضد هرطقة أبوليناريوس!

ــ وفيما يختص بلاهوت الروح القدس ومساواته للآب والإبن في المجد والكرامة والعبادة، وذلك ضد هرطقة مقدونيوس وأتباعه.

ــ وحرم تعاليم المجدّف المحترف أيونوموس الذي قال إن الإبن يخالف الآب في كل شيء وفي كل الصفات وفي الجوهر(٩)، وأمر الإمبراطور بحرق جميع مؤلفاته. (١٠)

ــ كما حرم تعاليم أفدوخسيوس أشد الآريوسيين تجديفاً وفساداً وهو صديق أيونوموس. (١٠)

ــ كما حرم مارسيليوس أسقف أنقرة وكافة تعاليمه التي تظهر أنها ضد الآريوسيين، وهي أشد فساداً من الآريوسية، فهوينكر أزلية الإبن وينكر دوام ملكوته(١١). ولذلك أدخل المجمع ضمن إقراراته العقائدية **«وليس لملكه انقضاء»**.

ويعتبر مجمع القسطنطينية مكمِّلاً لمجمع نيقية من حيث توضيحه علاقة الثالوث في ذاته، وإن خروج الكنيسة من مجمعي نيقية والقسطنطينية بتقرير لاهوت المسيح وناسوته الكاملين يُعتبر أعظم نصرة لقضية التجسد والفداء، وبالتالي لإنارة طريق الخلاص أمام الإنسان بلا أدنى إبهام!



(9) Ph. Schaff, op. cit. III, 646.

(10) Beth. Baker, op. cit. p. 178 n., Ph. Schaff III, p. 64.

(11) Beth. Baker, op. cit. p. 130 quoting Harnack.

مجمع أفسس سنة ٤٣١ م(١٢)

●●●

عندما خرجت الكنيسة من مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م، كانت قد بلغت آخر مستوى في توضيح الثالوث القدوس حسب التقليد الرسولي وحسب الكتب أيضاً. وقد وضعت كافة الصيغ الممكنة لضمان وحدانية الجوهر الإلهي في الثالوث من جهة، ومن جهة أخرى تساوي الثلاثة أقانيم في المجد والكرامة والقوة.

أما من حيث الأقنوم الثاني، أي المسيح، فقد وصل مجمع القسطنطينية إلى تحديد العقيدة التي تنص على كمال لاهوت المسيح وكمال ناسوته من كافة الوجوه، أي وجود طبيعتين كاملتين إلهية و بشرية لأقنومه الواحد. و بذلك بقيت ثغرة واحدة هي صلة الطبيعتين الإلهية والبشرية بعضهما ببعض. ومن هذه الثغرة الأخيرة نفذ الشيطان وحرك نسطور ليدخل بصفته مناضلاً عن لاهوت الإبن ولكن ليخلخل الإتحاد بين اللاهوت والناسوت في شخص المسيح.

ونسطور هو بطر يرك القسطنطينية، وتلميذٌ للعلاّمة ثيئوذور الأنطاكي (تلميذ ليبانيوس الفيلسوف الوثني المشهور). **وقد تسلم نسطور من معلمه مبدأ الفلسفة التجريدي بعدم إمكانية حلول الله حلولاً كاملاً كيانياً في أي جسد، ولكن الله يحل بقوته أو بطاقته أو بعمله فقط، فحلول الله هو حلول الموافقة والمسرة**(١٣)، وحلول الله على درجات ولكن أعلى درجة للحلول كانت في المسيح وهي لا تقارَن بأي حلول آخر، لأنه آبن الله، وقد تم ذلك في بطن العذراء ــ وأهّلته

(12) Beth. Baker, op. cit. p. 356-362.

(١٣) وهذا مما جعل القديس كيرلس الكبير يؤكد في خطابه أو في الإثني عشر حرماً أن إتحاد الكلمة بالطبيعة البشرية كان إتحاداً أقنومياً.

أن يكون متحداً «بكلمة الله» إتحاداً غير مفترق، و بذلك صار شخص المسيح أي أقنومه يحتوي «كلمة الله» ويحتوي بشريته، كلاً بمفرده، لأن إتحادهما، في عُرف نسطور وتفسيره، هو إتحاد الموافقة للوصول إلى شخصية موحدة!!

وكان قصد نسطور من ذلك أن يتحاشى هرطقة أبوليناريوس الذي مزج بين **اللاهوت والناسوت بقصد الوصول إلى عصمة إجبارية لناسوت المسيح،** فقال ــ مقابل ذلك ــ بالفصل الكامل بين الطبيعتين على أن إتحادهما بالموافقة فقط (التي هي أساس الحلول الإلهي عنده) حتى تكون عصمة المسيح كإنسان عصمة حرة إرادية... ولكن هذا ــ قطعاً ــ أنشأ في تعاليم نسطور عقيدة وجود شخصين وطبيعتين.

ولكن هذا الإنفصال «الجوهري» في طبيعتي المسيح وفي شخصه ظل مختبئاً غير ملحوظ في تعاليم نسطور، إلى أن ظهر فجأة و بصورة عنيفة عندما ابتدأ نسطور يهاجم العذراء مريم منكراً أنها «**والدة الإله ــ ثيئوتوكوس**»، إذ اعتبر ذلك وثنية دينية وأنه يخالف الكتاب المقدس. فمريم ــ عنده ــ هي «أم الطبيعة البشرية فقط»: «لأن الطبيعة البشرية والطبيعة الإلهية منفصلتان تماماً في المسيح»، «ولا يوجد بينهما إلا توافق فقط»: [حلول اللاهوت في الإنسان يُنتج إتحاداً في الأخلاق والتعاطف فقط.]

وبهذا جعل نسطور الإتحاد بين الطبيعتين إتحاداً صورياً ميكانيكياً كتحالف صناعي بينهما وليس كوحدة حية. (١٤)

ولكن لقب العذراء «ثيئوتوكوس» كان مستقراً في تقليد الكنيسة وفي روح

---

(14) Beth. Baker, op. cit. p. 356-362.

العبادة، لذلك هاجت الكنيسة كلها على نسطور، حتى في القسطنطينية ذاتها، وفي كنيسة القيامة نفسها التي كان يعظ فيها، وامتد الهياج والسخط إلى كافة أنحاء البلاد، وسرعان ما دخل الموضوع في الفحص والتحقيق اللاهوتيين.

وكان القديس كيرلس الكبير إمام المتحمسين، فابتدأ سنة ٤٢٩ يراسل نسطور بخطابات ذات طابع عقائدي أرثوذكسي منقطع النظير، تعتبر خلاصة العقيدة الأرثوذكسية التي جنتها الكنيسة من كافة مصارعاتها الفكرية واللاهوتية والعقائدية مع الهرطقات منذ نشأتها. وقد ركز القديس كيرلس الكبير في أحد خطاباته على ما يجب أن يُقال وما لا يجب أن يُقال بخصوص إتحاد الطبيعتين، وذلك في هيئة قوانين ذات حرومات قاطعة، وهو المسمى بـ«**الخطاب الثالث لنسطور**».

«وهذا الخطاب اعتُبر ضمن مقررات مجمع أفسس لتقرير الإيمان، لذلك كان موضع إحترام في مجمع خلقيدونية، ولو إنه كان إحتراماً صورياً، لأنه بالرغم من تعارضه الشديد مع طومُس لاون الذي أخذ به مجمع خلقيدونية، فالمعروف أن مجمع خلقيدونية قَبِل طومس لاون (بالرغم من رائحة النسطورية الزاعقة منه) على أساس خطاب القديس كيرلس الكبير ذي الإثني عشر حرماً (؟؟) وذلك طبعاً لتبرير قانونية مجمع خلقيدونية حسب التقليد الكنسي، لأن المجمع المسكوني لا يكون صحيحاً إلا إذا أخذ بكافة قرارات المجامع السابقة له.» [١٥]

كما قام البابا سيلستين في روما بعقد مجمع سنة ٤٣٠ وحرم فيه نسطور. فإزاء هذا الإجماع الشديد ضد نسطور اضطر الإمبراطور ثيئوذوسيوس الثاني ــ وقد كان منحازاً لنسطور ــ إلى طلب عقد مجمع.

(15) Ph. Schaff, op. cit. III, p. 946 citing R.P. Smith.

وقد انعقد المجمع في أفسس في ٢٢ يونية وحكم على نسطور، ولكن ظل المجمع في ارتباك وتشويش بسبب تدخل الإمبراطور، وتشيع يوحنا أسقف أنطاكية لنسطور، حتى إن الإمبراطور حكم على القديس كيرلس الكبير بالسجن مدة. وأخيراً أمام الضغط الشعبي ومؤازرة البابا سبلستين للقديس كيرلس الكبير أصدر الإمبراطور الحكم على نسطور سنة ٤٣٥م بالنفي إلى ديره، ثم عاد سنة ٤٣٦ وأصدر الحكم عليه بالنفي إلى صعيد مصر وحرق جميع مؤلفاته ومؤلفات معلمه ثيئوذور القس الأنطاكي الفيلسوف الذي كان قد مات منذ مدة طويلة.

وقد انجلى الموقف بعد هذا الصراع المرير ضد نسطور على تسجيل الخطابات التي أصدرها القديس كيرلس الكبير للدفاع عن العقيدة طيلة هذا النزاع، حيث اعتُبرت كدستور للأرثوذكسية.

وكان أهم هذه الخطابات هو الخطاب الفصحي المشهور الذي أصدره سنة ٤٢٩م، ثم الخطاب الذي أصدره بعد عقد مجمع محلي في الإسكندرية في أغسطس سنة ٤٣٠م وقد أرسله إلى القسطنطينية في نوفمبر وبه الإثنا عشر حرماً مع شرح مطوّل للعقيدة، ويسمى «**الخطاب الثالث**» أو Epistola Synodica ، وقد سبقه خطاب آخر شخصي لنسطور يشرح فيه القديس كيرلس الكبير دقائق العقيدة. وهذا الخطاب يدخل ضمن الوثائق الأرثوذكسية التي تأخذ بها كافة الكنائس الشرقية. ثم خطاب آخر أرسله لكنائس الشرق اسمه «**المرسوم المقترح للإتحاد**».

هذه الخطابات صارت بمثابة ملحق لقرارات مجمع أفسس تستخدمها الكنيسة اللاخلقيدونية كدستور لاهوتي لها. هذا بخلاف عدة خطابات أخرى كتبها القديس كيرلس الكبير قبل وبعد المجمع الأفسسي، مليئة بالتعاليم والتفاسير اللاهوتية الدقيقة.

وفي كل دفاع القديس كيرلس الكبير وفي شرحه لإتحاد الطبيعتين وكيف صارا طبيعة واحدة من طبيعتين وتمسكه بالإصطلاح التاريخي المشهور «**طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد**»، لم يخرج القديس كيرلس قط عن ما قال به أثناسيوس. (١٦)

وبكل ما انتهى إليه مجمع أفسس تكون الكنيسة قد استوفت تفسير تقليدها الرسولي في قانون الإيمان الذي تسلمته كوديعة مقدسة وحددت عباراته واصطلاحاته اللاهوتية كعقيدة مستقرة ثابتة بالسلطان الكنسي القاطع.

أما مجمع خلقيدونية واجتماعه بسبب هرطقة أوطاخي، فلم يكن موفَّقاً في غرضه التقليدي، إذ انحرف عن مقررات مجمع أفسس. فلكي ينفي هرطقة أوطاخي الذي أنكر حقيقة وأصالة الجسد البشري الإنساني الذي للمسيح انحرف، بسبب طومس لاون، ناحية النسطورية. ولقد جامل المجمع طومس لاون على حساب مقررات أفسس الهامة، وضحى بلاهوت القديس كيرلس الكبير الذي يمثل خلاصة التعليم الكنسي التقليدي(١٧) ليناصر روما. ولكن للأسف، فإن روما خذلت القسطنطينية والشرق كله، لا من حيث المجاملة، بل من حيث أصالة التقليد نفسه الذي ذهبت به يميناً وشمالاً أكثر مما يَحتَمِل!!

لذلك، فالكنيسة اللاخلقيدونية التي يمثلها الأقباط والأحباش والسريان والأرمن، تقف في تقليدها الرسولي وتفسيرها العقائدي لقانون الإيمان عند مجمع أفسس متمسكة بكل قراراته مع المجامع السابقة عليه.

---

(16) Ibid.

(١٧) إن تشديد القديس كيرلس الكبير على الإصطلاح «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد» الذي حاول المجمع في خلقيدونية التهرب منه لم يكن جديداً في الكنيسة. فقد قال به أثناسيوس الرسولي بنفس العبارات. راجع:

Ph. Schaff, op. cit. III 607.

الفصل الحادي عشر

تفسير التقليد الرسولي لقانون الإيمان على ضوء المجامع

□□□

قد يتبادر إلى ذهن الإنسان المحب للكنيسة والمحب للهدوء والسلام سؤال وهو: ما الذي استفادته الكنيسة، وبالتالي ماذا أستفيده أنا وغيري في القرن العشرين من هذا الصراع المرير الذي دخلته الكنيسة ضد الهراطقة واستمر خمسة قرون كاملة؟

ثم سؤال آخر: إن أمر هذا الصراع قديم وقد مضى عليه الآن ألف وخمسمائة سنة، فأليس من الأفضل أن نهمله ونعيش في الواقع؟

أما السؤال الثالث فهو: ألا يكفي أن نتمسك بقانون الإيمان الذي انتهت إليه الكنيسة، ونحفظه دون أن ندخل في التفاصيل؟

□

وللإجابة على هذه الأسئلة الثلاثة يلزمنا أن نعرف ماذا كان وراء هذه الهرطقات من خطورة لا على منطوق قانون الإيمان، بل على حقيقة الفداء والخلاص الذي نعيشه الآن، كما يلزمنا أن نعرف ماذا استفادته الكنيسة من هذه المحنة تلو

المحنة، وكيف استخدم الله هذه المحن كلها لصقل قانون الإيمان والتعمق فيه وكشف جميع أسراره المتعلقة بحياتنا وفدائنا وتقديسنا وقيامتنا وخلودنا. (١)

فإن قلق الكنيسة خمسة قرون وسهر قديسيها وأساقفتها على حفظ الوديعة الإيمانية كما تسلموها، وما بذلوه من عرق ودموع وسجن وتعاذيب ودم من أجل ذلك، ومن أجل صحة تفسيرها وصحة فهمها وصحة تطبيقها، قد تحولت كلها إلى نور لإنارة طريق الخلاص والحياة والخلود.

ولكي يتضح لنا ذلك أولاً، ولكي ندرك قيمة جهاد الكنيسة الطويل في حفظ التقليد الرسولي، بل ولكي نتمسك بإقرار الرجاء والإيمان كما تسلمته الكنيسة وكما سلمته لنا فنمتلىء قوة وعزاءً وسروراً، سوف نقدم قانون الإيمان ومعه ــ باختصار ــ كافة المراحل التي عبرت فيها نصوصه.

بالحقيقة نؤمن بإله واحد	هذا النص يذكّرنا بجهاد الكنيسة في القرنين الأول والثاني بشدة حتى القرن السادس، ضد الغنوسية بمدارسها الثلاث. وهنا نذكر القديس بولس الرسول والقديس يوحنا الرسول والآباء الرسوليين: إكليمندس و بوليكاربوس وإغناطيوس و برنابا و بابياس و يوستينوس وإيرينيئوس وجهادهم الحار المخلص الموفّق الذي على أساسه جاء الآباء وأكملوا التعليم بوحدانية الله في الثالوث.

(١) لقد استطاع الشيطان أن يجعل مع تاريخ النعمة والخلاص في الكنيسة تاريخاً آخر للهراطقة والمقاومين للإيمان، وأصبح من العسير أن نتعرف على التاريخ الأول دون أن نعاني من دراسة التاريخ الثاني.

الله الآب ضابط الكل[٢] خالق السماء والأرض وكل ما يُرى وما لا يُرى	هذا النص يذكرنا بهرطقة «باسيليدس» و«ڤالنتين» و«مارقيون» القائلة بوجود إلهين واحد علوي وآخر سفلي، واحد مسئول عن خلقة العالم الروحاني وآخر مسئول عن خلقة العالم المادي.
وبرب واحد يسوع المسيح	هذا النص وُضع ضد هرطقة الأقنومين التي قال بها ڤالنتين الغنوسي، وهرطقة الشخصين التي قال بها نسطور.
ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور.[٣]	هذا النص يقاوم هرطقة آريوس (وبالأخص إيونوموس أحد أتباعه) الذي قال إن المسيح يخالف الآب في كل شيء وفي كل الصفات وفي الجوهر، وهو غير مولود من الله بل مخلوق وغير أزلي.
نور من نور، إله حق من إله حق، مولود غير مخلوق،	وهذا تعبير عن الولادة الإلهية أو الجوهرية كولادة النور من النور. النص وُضع هنا ضد هرطقة

(٢) ضابط الكل παντοκράτωρ اصطلاح يفيد القدرة الكلية للحاكم وهو مذكور في سفر الرؤيا ٩ مرات، وفي كورنثوس الثانية ٦: ١٨، وهو موجود أيضاً في العهد القديم في الترجمة السبعينية في سفر عاموس ٤: ١٣ = رب القوات. وهذا الإصطلاح يعني القدرة الكلية على كل شيء ويجيء هذا الإصطلاح أيضاً مشابهاً وقريناً للكلمة اليونانية παντοδύναμος والمقابل اللاتيني لها omnipotens

(٣) ابن الله الوحيد واللفظ اليوناني لها μονογενής يقابله اللفظ اللاتيني unicus . وردت في العهد الجديد في إنجيل لوقا وإنجيل يوحنا ورسالة العبرانيين. وهذا الإصطلاح معروف في العبرية قديماً وهو مشتق من وضع إسحق بالنسبة لإبراهيم «ابنك وحيدك». ولكن بالنسبة للمسيح تفيد فرادة العلاقة القائمة بين المسيح والله التي لا يقابلها شبيه آخر التي شرحها المسيح نفسه بقوله إنه «لا يعرف أحد الآب إلا الإبن ولا يعرف الإبن إلا الآب». فهنا الوحدانية تشمل خصوصية النوع في البنوة الفريدة في الله، فهو الوحيد المولود والمولود الوحيد. وهذا التحديد كان لمقاومة إيونوموس الذي هاجمه القديس باسيليوس بشدة (في دفاعه المشهور ضد إيونوموس ٢: ٢٠).

آريوس التي تنكر بشدة ولادة الإبن جوهرياً من الآب، وتقول إنه «مخلوق من لا شيء مثل خلقة العالم، فهو ليس إلهاً من إله، وبُنوّته لله هي أدبية فقط.» (٤)

مساوٍ للآب في الجوهر (من ذات جوهر الآب)

«أثناسيوس على القانون ١٩»

هذا النص أنقذ الكنيسة من مراوغة آريوس، لأن آريوس كان مستعداً أن يقبل أي تعبير آخر ليفلت من المحاكمة إلا هذا النص الذي فضَّل أن يموت ولا يسمعه، لأنه يحمل أقوى وأحكم تعبير عن لاهوت المسيح المساوي لله الآب، حيث المساواة للآب هنا تذكرنا أيضاً بهرطقة «سابيليوس» الذي أراد أن يلاشي أقنوم الإبن ويجعله هو نفس أقنوم الآب، ولكن الإيمان هنا يوضح مساواة أقنوم الإبن لأقنوم الآب جوهرياً.

الذي به خلق كل الأشياء

وهنا النص وُضع ضد هرطقة القائلين أن الأقانيم فيها خالق وفيها مخلوق كبدعة آريوس: أن الآب خلق الإبن (اللوغوس) ليخلق به العالم، كتعليم «فيلو». فكما أن الله الآب

---

(٤) في هذه يقول القديس أثناسيوس: [كما أن الينبوع ليس هو النهر والنهر ليس هو الينبوع مع أن الإثنين هما واحد، وماء واحد يفيض من الينبوع في النهر كذلك فإن اللاهوت (الألوهة) تفيض بدون انقسام من الآب في الإبن، حيث يقول الرب نفسه: «خرجت من عند الآب ومن الآب أتيت» مع أنه مع الآب دائماً أبداً فهو في حضن الآب وحضن الآب لم يخلُ من لاهوت الإبن] (شرح الإيمان: ٢). الإبن من جوهر الآب ليس بالإنقسام ولكن بالإتصال الذاتي، هذا الإتصال الذاتي الإلهي بالحب الأبوي يُكنى عنه بالولادة في قانون الإيمان، وفي الكتاب المقدس يُكنى عنه بالآب والإبن. وكلمة «الآب والإبن» في الله تعني هذا الإتصال الجوهري الدائم الأبدي الذاتي.

Quasten, Patro., III, p. 8.

خالق كل ما يُرى وما لا يُرى، فالإبن خالقٌ كذلك كلَّ شيء مع الآب باتفاق ووحدة(٥). فالكل مخلوق بالآب مع الإبن. (٦)

الذي من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا، نزل من السماء وتجسد(٧) من الروح القدس ومن مريم العذراء **وتأنّس** (٨)

وهذا النص وُضع ليثبت وجود المسيح الأقنومي السابق للميلاد الجسدي، كذلك فهو يقاوم كل الهرطقات التي تقول أن يسوع قَبِل اللاهوت فقط في المعمودية مثل «ڤالنتين» الغنوسي؛ أو التي تقول إن اللاهوت سكن في الناسوت مثل «نسطور»، كما يقاوم كل الهرطقات التي تقول إن ميلاده كان طبيعياً، مثل «الإيبونيم»، كما يقاوم كل الهرطقات التي تقول إنه لم يكن إنساناً تاماً، مثل «أبوليناريوس».

وصُلب عنا على عهد بيلاطس البنطي. وتألم وقُبر.

وهذا النص يقاوم كل الهرطقات التي تقول إنه لم يُصلب ولم يتألم، مثل هرطقة الغنوستيين والدوسيتيين والأوطاخيين.

وقام في اليوم الثالث حسب الكتب

وهذا النص يقاوم الهرطقات التي تنكر قيامته مثل «الكيرنثيون» و«الغنوستيون»

(5) Athanas., Ist. Letter to Serap.

(6) Athanas., Or. Arian., Quasten III, p. 67.

(٧) تجسد = σεσαρκωθέντα أي صار جسداً بحسب تعبير إنجيل يوحنا. وقد قبلها آريوس.

(٨) وتأنس ἐνανθρωπήσαντα فالإبن الذي هو له جوهر الآب ومن جوهر الآب تأنس أي صار إنساناً، هذا التعبير كان إمعاناً في تأكيد ألوهيته التي كان لا يطيقها آريوس. وفي نفس الوقت تأكيد لكمال ناسوته أي لكل ما يخص الطبيعة البشرية و يلزمها.

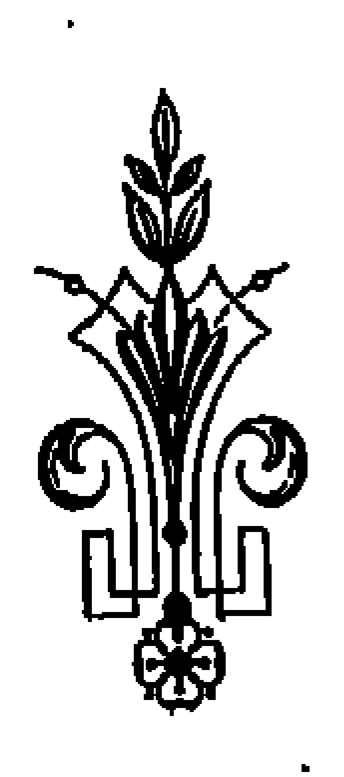
و «الدوسيتيون» و «الأوطاخيون» .

وصعد إلى السماء وجلس عن **يمين الآب**	وهذا النص وُضع ضد هرطقة الغنوسيين الذين قالوا بانتهاء رسالة اللوغوس قبل الآلام وأن المسيح تألم بدون اللوغوس، لذلك فالقيامة مزيّفة وكذلك بالتالي يكون الصعود في اعتبارهم. كما إنه في هذا النص أيضاً مقاومة ضد الهرطقات التي لا تعترف بالمساواة بين الإبن والآب.
وسيأتي أيضاً في مجده ليدين الأحياء والأموات	وهذا النص وُضع ضد الهرطقات التي قالت أن بموت المسيح انتهت رسالته.
الذي ليس لملكه انقضاء	وهذا النص يقطع ضد القائلين بملكوت المسيح الألفي وضد هرطقة «مارسيليوس» أسقف أنقرة النصف آريوسي الذي أنكر دوام ملكوت المسيح، وحرمه مجمع القسطنطينية.
ونؤمن بالروح القدس، الرب المحيي، المنبثق من الآب، نعبده ونمجده مع الآب والإبن، الناطق في الأنبياء.	هذا النص ضد الذين أنكروا الثالوث الأقدس وضد منكري لاهوت الروح القدس و بالأخص مقدونيوس وضد آريوس القائل بأن الروح القدس مخلوق دون الإبن (٩).

(9) Quasten, Patr., III
p. 78: (1) Athanas., 1st Letter to Serap.
p. 78: (2) Athanas., 2nd Discourse against Arians, 42.
p. 98: (3) Didymos, De Trinit., 2; 12.

وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية	هذا النص ضد الهراطقة الذين كوّنوا لأنفسهم كنائس، ونظموا لأنفسهم تقليداً للإيمان مخالفاً لقانون الإيمان الرسولي، ونظموا رئاسات كنسية من نظامهم الفكري الخاص، مثل كنائس المانيين والدوناتيين.
وبمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا.	هذا النص ضد الذين كانوا يكررون معمودية الذين دخلوا الهرطقات أو أنكروا المسيح تحت الإضطهاد. فالمعمودية إذا كانت من تسليم الكنيسة حسب التقليد الرسولي والإيمان الصحيح لا تتكرر، أما معمودية الهراطقة مثل الآريوسيين والمانيين والدوناتيين فكلها مرفوضة لأنها ليست حسب الإيمان الصحيح.
وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي.	هذا النص قديم وقد وُضع تحقيقاً لقيامة الأجساد التي كان يعارضها الأفلاطونيون والمانيون والوثنيون عامة. والغنوستيون الذين يقولون بأن الجسد شرير وكل المادة، فيجحدون القيامة الجسدية عامة معتبرين أن القيامة والخلاص هما للروح فقط. وقد بدأت مقاومة هذه الهرطقات بشدة منذ أيام القديس بولس الرسول ثم بوليكاربوس في خطابه (إلى فيلادلفيا) وكذلك القديس يوستينوس (الحوار ـــ ٨٠). والقديس إيرينيئوس (ضد الهراطقة) ـــ

والعلامة ترتليان الذين أجمعوا جميعاً على العقيدة الرسولية بقيامة الأموات التي وُجدت في أقدم القوانين، باعتبار أن الجسد مفديٌّ أيضاً بالميلاد الجديد وقد صار هيكلاً للروح القدس، وهو يبقى في الأرض كبذرة تنتظر قيامة الحياة الأبدية في اليوم الأخير ليصير على شبه جسد المسيح المجيد(١٠).



(10) Ph. Schaff, Hist. of Chr. Ch., III, p. 451, 2.
Kelly, Early Christ. Creeds, p. 163-6.

الفصل الثاني عشر

انسكاب روح التفسير الإنجيلي على الآباء في ضوء النصوص العقائدية التي أقرتها المجامع

□□□

بالرغم من أن التقليد الرسولي تُسلِّم من الرسل للآباء الأولين قبل المجامع واضحاً ومشروحاً بالروح، بسيطاً غاية البساطة، وهم تقبَّلوه مسنوداً بالإلهام ومضيئاً بنور الإستعلان الحقيقي، إلا أن هذا الإلهام وهذا النور لم يكن مقسماً على الجميع بالتساوي، لذلك نجد منذ البدء أن الآباء ينقسمون إلى من هو واضح محدد قاطع في تفسيره لقانون الإيمان بحرارة الإيمان، وإلى من هو متسائل متحير، تارة يصيب الحقيقة وتارة يدور حولها في إعياء.

فمثلاً نجد القديس يوستين، وهو من الآباء الرسوليين البسطاء، يتكلم عن الثالوث بهذا الوضوح:

[إن المسيحيين يعبدون خالق الكون... و بالثاني يعبدون الإبن... و بالثالث حسب الطقس يعبدون الروح النبوي.](1)

وكذلك يأتي الفيلسوف اللاهوتي المسيحي أثيناغوراس و يتكلم عن الثالوث بكل إلهام قائلاً:

---

(1) A.N.F., Ist. Apology, 13.

[أما كوننا لسنا كَفَرة فهذا ظاهرٌ من أننا نعترف بالله الواحد، وقد سبق أن شرحت ذلك بوضوح، فمن ذا الذي يندهش عندما يسمع أناساً (أي نحن المسيحيين) يتكلمون عن الله الآب والله الإبن وعن الروح القدس مؤكدين قوة هذا الثالوث في الوحدة وتميزهم في الطقس.](٢)

ولكن عندما نأتي إلى أوريجانس نجده متردداً متسائلاً:

[فالمسيح ــ به كان كل شيء ــ فهل الروح القدس أيضاً خلق بواسطته؟ ثم يستمر أوريجانس يقترح: هناك ثلاث إجابات ممكنة: الأولى «نعم» إذا كان الروح القدس تبع طقس المخلوقات، حيث أن اللوغوس (الكلمة) أقدم من الروح القدس] وأخيراً بعد أن يسرد الإجابات الثلاثة يرجح الإجابة الأولى أن الروح القدس مخلوق بواسطة الإبن!!!

وهنا يبدو أوريجانس العبقري مجرداً من الإلهام!!! وكجبار لا يستطيع أن يخلِّص حتى نفسه.

وهكذا تظهر بوضوح الضرورة المحتمة التي كانت تفرضها هذه الظروف لوجود رأي واحد وفكر موحَّد ملهَم يقرر الحقيقة، باتفاق مسكوني عام، فيما يختص بكل دقائق الإيمان، حتى يصير للكنيسة مصدر واحد كامل للحق الإلهي!! في إطار من التحديدات التي **لم يُقصد منها إلا مزيدٌ من الحرية والحركة في العبادة والإيمان دون الخوف من الإنحراف والزلل.** (٣)

شكراً لله من أجل المجامع المقدسة والإلهام الذي قادها في وسط عواصف

(2) A.N.F., Apol. 10.2,133.

(٣) للأسف العميق إن هذه التحديدات أخذت صورة قوانين صارمة صار يتحارب بها اللاهوتيون كأنها أسلحة للقتال، فتغيرت صورتها في أذهان المؤمنين وصارت مخيفة مرعبة، ووقع الروح عبداً للحرف!!

عنيفة من الأفكار والمنازعات والسياسات والعناد والقسوة والرشوة وكل صنوف العثرات، حتى استقر قانون الإيمان في نصوص عقائدية قانونية دامغة، طبقاً للإلهام الأول وحسب رأي ومسرة الله.

وهكذا، ما كان خاصاً من الإلهام والنور والنعمة لواحد من الآباء دون واحد، صار عاماً مشاعاً لكل فكر وكل قامة وكل مؤمن بسيط بواسطة المجامع المقدسة.

لذلك أصبحت المجامع المقدسة جزءاً لا يتجزأ من التقليد الكنسي، وامتداداً للإلهام الذي كان للرسل، واستمراراً لفاعلية الروح القدس في الكنيسة بلا تشيُّع ولا انقسام، ومصدراً حياً لصوت الحق يُرجع إليه لقبول روح الإلهام... دون اعتبارها ذات سلطان أعلى من سلطان الإنجيل ـــ أو رفعها إلى مستوى الخوف فنفقد حرية الروح وحركة المحبة.

وهكذا يقف التقليد العقائدي موقفاً، غاية في الأهمية، من الأسفار المقدسة، إذ يؤمّن معاني الآيات اللاهوتية فيما يختص بالإبن أو بالروح القدس التي وردت في مواضع غير ظاهرة أو في مواضع محدودة بفكرة معينة، يؤمّنها ضد الإنحرافات التفسيرية ويضمُّها جميعاً في إطار عقائدي لا يتعداه الشرح أو التأويل خوفاً من السقوط من دائرة الحق والحب، لا خوفاً من السلطان الكنسي القاطع.

كما نجد أن التقليد العقائدي الذي انبثق من المجامع المسكونية والحوار الذي دار فيها قد أخصب الإنجيل والفكر اللاهوتي عامة بإصطلاحات وألفاظ لاهوتية إيمانية غاية في القوة والعمق والنور والإلهام. جاءت لتزيد الحق عمقاً وأصالة وليس لإرهاق الفكر أو التثقيل على الإيمان، مثل:

كلمة «الجوهر» Substance = essence = οὐσία

١ ــ «الطبيعة» (٤) nature = φύσις

٢ ــ «الأقنوم» (٥) person = ὑπόστασις

٣ ــ «الشخص» (٥) (وجه) person = πρόσωπον

٤ ــ «الثالوث» (٦) τριάς في معناها الجوهري والأقنومي.

وكلمة «المساواة في الجوهر» Consubstantial = ὁμοούσιος

وكلمة «المساواة في الكرامة» ὁμοτιμία (بالنسبة للروح القدس مع الآب والإبن).

وكلمة «وحدة الألوهة» (في الآب أو في الله) μοναρχία (٧) بالنسبة للآب والإبن والروح القدس.

وهذه الإصطلاحات استطاعت أن تجعل للإيمان منطوقاً محدداً بالألفاظ يشمل كافة الأسفار المقدسة من جهة اللاهوت يتعين به إيمان الشخص و يتحدد بصورة

(٤) يقول القديس أثناسيوس: [نحن البشر نتكون من جسد ونفس وكلنا طبيعة واحدة μίας φύσεως وجوهر واحد καὶ οὐσία ولكننا أشخاص كثيرون]. Ph. Schaff, op. cit., II, 672.

والآباء القديسون على وجه العموم، و بالأخص القديس كيرلس الكبير يميزون بين الطبيعة والجوهر.

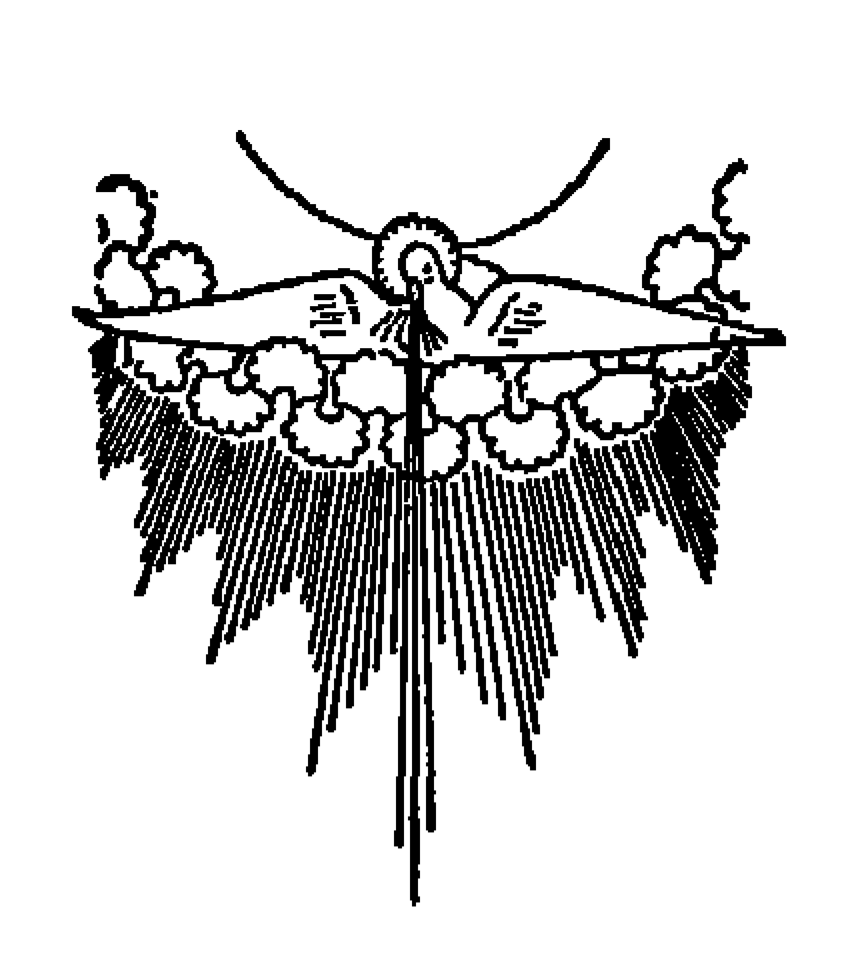
(٥) الفرق بين الأقنوم والشخص في الأصول اللغوية بسيط ولكن الفرق بينهما في الأصول اللاهوتية كبير. فالشخص لا يعني بوضوح احتواءه على جوهر أو طبيعة معينة، لذلك يأتي بمعنى «وجه» أو «صفة» (أو مظهر أو هيئة). لذلك فقد استخدمها سابيليوس في الثالوث ليجعل من الثالوث أقنوماً واحداً له ثلاثة أوجه أو ثلاث صفات. أما «أقنوم» فيعني بوضوح وتحديد احتواءه على جوهر يمثله و يعلنه. (Ph. Schaff, op. cit., III, 675).

(٦) كلمة الثالوث τριάς وردت أول ما وردت في كتابات ثاوفيلس الأنطاكي (نهاية القرن الثاني) وأثيناغوراس (سنة ١٧٧)، ثم ترتليان (سنة ١٦١ ــ ٢٢٠).

(٧) المعنى الأرثوذكسي بدأ في القرن الثاني و يفيد وحدة الألوهة في الآب والإبن والروح القدس على أن الآب المصدر، فنه يولد الإبن (ولادة أزلية كولادة الشعاع من الشمس) و ينبثق الروح القدس انبثاقاً أزلياً كانبثاق النور أو الحرارة من الشمس بتساوي اللاهوت تساوياً مطلقاً ولكن من بعد القرن الثاني بدأ هذا الإصطلاح يأخذ انحرافاً لاهوتياً لم يوفق في مساواة الإبن بالآب في الجوهر على يد مجموعتين: المجموعة الأولى بقيادة ثيئودوتس وأرتيمون و بولس السُمُساطي والمجموعة الثانية نوئيتوس و براكسياس أتباع سابيليوس.

مختصرة قاطعة واضحة، كما استطاعت أن تكون مقياساً ثابتاً يقاس عليه كل فكر وكل قول وكل تصرف هل هو حسب الإيمان التقليدي المقدس أم لا؟ و بذلك صارت إمكانية الخروج عن الإيمان الكنسي ضئيلة، فحفظت الكنيسة وختمت على الأسفار المقدسة. باعتبار أن تقنين هذه الإصطلاحات يمشي جنباً إلى جنب مع التعمق في الإيمان والمحبة في شخص الرب يسوع المسيح.

وعلى ضوء النصوص الإيمانية التي قررتها المجامع المسكونية انسكب سيل النعمة على الآباء فكتبوا وفسروا كل ناحية من نواحي قانون الإيمان حسب التقليد و بقوة الروح القدس. فتكوّن في خزانة الكنيسة الفكر ية ذخائر روحية وانضم لتراثها التفسيري كتابات غز يرة وعميقة وملهمة عن الثالوث الأقدس وعن تجسد الكلمة وعن ألوهية الروح القدس، وهكذا سار الإيمان البسيط القوي مستنداً على التعليم في ألفة ورصانة إلهية ببرهان السلوك والعمل الصالح.



الفصل الثالث عشر

الدخول في عمق التقليد الرسُولي
واكتشاف سر صراع الهراطقة ضد الثالوث

□□□

لم ينخدع الآباء أبداً بالمراوغات اللفظية التي كان يعرضها الهراطقة ثمناً للمهادنة، لأن الروح القدس كان يلهم فكرهم وضميرهم ولأن حساسية الإيمان والحق كانت عندهم في أشد توهجها، فكل هرطقة لم يكن قيامها في الحقيقة إلا محاولة جادة لهدم العلاقة الجوهرية بين المسيح والله الآب، فإذا لم تفلح المحاولة من هذا الإتجاه انقلبت لمحاولة هدم العلاقة الجوهرية بين المسيح وبني البشر. لأنه معروف لدى الشيطان أن خلاص الإنسان لن يتم إلا إذا كان للمسيح هاتان العلاقتان الجوهريتان كاملتين معاً في شخَصه. لأننا لا يمكن أن نخلص إلا بألوهيته الكاملة، ولا يمكن أن نُفتدى إلا بتجسده الكامل، ولا يمكن أن نتحد به إلا إذا كان هو الإله وهو الإنسان معاً في وحدة شخصية كاملة.

فكافة الهرطقات التي قامت ورفعت قرنها على الكنيسة فيما يختص بطبيعة المسيح كان لسان حالها يسأل: هل المسيحية ديانة فداء وخلاص وإتحاد بالله حقيقي؟ أم هي ديانة فلسفة فكرية وتأملات وحقيقة نسبية نستطيع أن نقدم أفضل منها مما عندنا؟

وانطلقت كلمة الحق من فم الكنيسة وحطمت كل ما هو ليس حقاً وابتلعت

كل ما هو شبه حق، ولم يبقَ من كافة المناظرات والمحاورات والبراهين والإحتجاجات إلا ما يثبت فعلاً أن المسيحية ديانة إلهية بالحق تمثل أعلى إلهام يمكن أن يبلغه الإنسان منذ أن كان وإلى الأبد... وأن المسيح هو آبن الله الذي أتى في الجسد ليفدي ويخلص ما قد هلك ويجمع المدعو ين إلى ملكوت أبيه.

لم تكن الهرطقات إلا محاولة بشر ية يائسة مدفوعة بروح الضلال لكي تطمس معالم الإنجيل كله وتنفي حقيقة المسيح الذي تم فيه إتحاد الله غير المحدود بالإنسان المحدود، حتى بواسطته و بالإيمان به يتحد كل إنسان بالله. وهكذا يُفتدى الإنسان من الموت الأبدي إلى حياة أبدية و ينال الغفران الكلي والخلاص الذي بلا ذهب ولا فضة!!

وقد كان القديس أثناسيوس الرسولي واعياً كل الوعي حذراً كل الحذر في نقاشه وحواره مع آر يوس لهذه الحقيقة الأولى والعظمى، فكان دائماً يشير إليها في بداية ونهاية كل حديث: أن كل جوهر المسيحية وكل حقيقة الفداء وكل ما يجعل للمسيحية قوة الخلاص الكامل يذهب كله هباءً و يصير بلا قوة ولا معنى إذا كان المسيح الذي نترجى أنه يوحد الإنسان بالله في إتحاد حقيقي لم يكن هو نفسه الله و بنفس جوهر الله! لأن القديس أثناسيوس كان يرى أن الفرقة الأبدية التي حدثت في علاقة الإنسان بالله ستبقى كما هي صدعاً لا يمكن علاجه إذا كان المسيح الذي يتوسط بين الإثنين هو مجرد مخلوق وجد من العدم وكان في زمن ما غير موجود، كما يتصوره آر يوس!!

فالمسيحية يبلورها ويجمعها القديس أثناسيوس حول مركز واحد دقيق يقوم عليه كل عمل في الخليقة من فداء وتقديس وخلاص، وهي **«إتحاد الله بالإنسان»** أولاً في شخص المسيح وثانياً بواسطة المسيح!! في حين أن آر يوس وكل هرطقة على

وجه العموم إن قليلاً أو كثيراً تحاول عكس ذلك تماماً إذ تجعل كل غايتها وهمّها وعبادتها (الباطلة) تنصب على إدراك الفرق الشاسع الذي يفصل الله غير المحدود عن الإنسان المحدود، حتى في المسيح نفسه!! فبدل أن تقرب الإنسان إلى الله تحاول جاهدة لإبعاده عنه!!

إن روح العالم كان يشدد أيدي الهراطقة لكي يطفىء سراج المسيح الذي هو فرح البشرية وبهجة خلاصها وطريقها المنير إلى ملكوت الله!! ولكن هيهات، فالمسيح هو النور الحقيقي، والنور الحقيقي لا يُطفأ ولا يُخفى تحت مكيال.

لقد تمشى القديس أثناسيوس الرسولي وآباء المجامع في نور الإستعلان الإلهي مسوقين بروح الله حسب التقليد الرسولي فلم يخطئوا الطريق أبداً، حتى أوصلوا إيمان الكنيسة إلى إشراق الحق الكامل في المسيح يسوع **حسب الكتب** ــ كما نص قانون الإيمان النيقاوي.

لقد انفتح أمام الآباء بسبب كشف هذه الحقائق الإلهية التي تختص بالفداء والغفران والخلاص والتقديس والإتحاد بالله المجال للشرح والتفسير والوعظ في أصالة روحية وإلهام مستمد من الأصول الأولى للحق كما قررتها المجامع... لأن النصوص الإيمانية العقائدية التي قررتها المجامع فيما يختص بالثالوث و بالمسيح و بالروح القدس لم تقررها كبنود مجردة للإيمان وإنما قررتها كينابيع تستقي منها الكنيسة كل تعاليمها فيما يختص بالتجسد والفداء والخلاص الذي أكمله المسيح، وفيما يختص بالميلاد والخلقة الجديدة والتقديس والإلهام والشركة مع الله.

ومن هذه الينابيع التي حفرها الروح القدس بيد الرسل والآباء القديسين وقررتها المجامع وحددت معالمها امتلأت الكنيسة من التعاليم الآبائية المحيية حتى اليوم، وإن كنا نترجى المزيد لأن الآباء الأُوَل استنزفوا كل وقتهم ومقدرتهم في

الدفاع عن الإيمان، وقد بقي أن نستمتع نحن به في إيجابية الفرح والنصرة بعيداً عن ظل المحاورات والجدل الكئيب.

وبانتهاء عصر المجامع يكون التقليد التعليمي والتفسيري المؤيَّد بالنصوص العقائدية القانونية، قد بلغ أقصى غايته في إرساء قواعده الثابتة حتى يبني عليها المعلمون المؤيدون بالروح القدس تعاليمهم بكل أمان.

وللقديس ڤنسنت قول مأثور شامل لهذا المعنى:

التقليد حارس للأسفار المقدسة:

[وقد يقال إن كانت نفس الكلمات والمشاعر والمواعيد التي في الأسفار المقدسة قد استعارها وتمسك بها الشيطان (في حواره مع المسيح) وتلاميذ الشيطان الذين كان منهم أيضاً رسل كذبة وأنبياء كذبة ومعلمون كذبة، وكانوا جميعاً وبدون استثناء هراطقة مبتدعين فبماذا نعرف أصحاب الإيمان الكنسي وماذا يعمل أولاد الكنيسة الأم الحقيقية؟ كيف يميزون الحق من الباطل؟

نعم عليهم أن يشرحوا الأسفار المقدسة القانونية بمقتضى التقليد الذي تعيش به الكنيسة الجامعة و يلتزموا حدود قواعد التعليم في الكنيسة الجامعة تابعين ما هو عام في الكنيسة كلها وما هو قديم ومسلَّم به.][1]

وحدة التقليد والأسفار المقدسة:

[لقد جرت الكنيسة الجامعة ولا زالت على إثبات الإيمان وتحقيقه بواسطة:

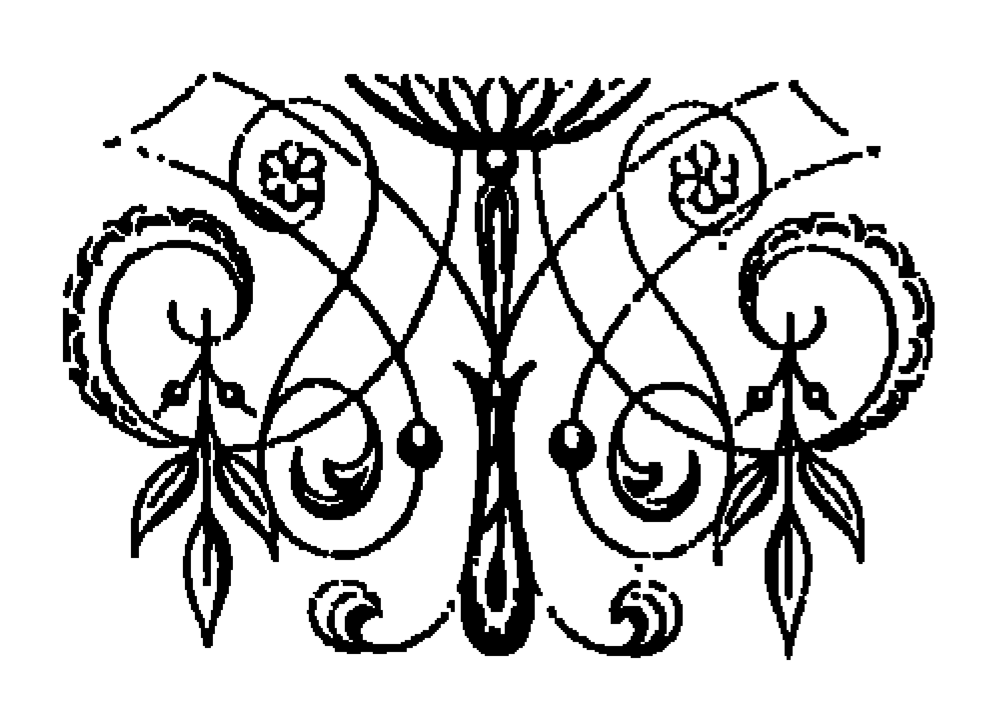
أولاً: سلطان الأسفار المقدسة القانونية.

ثانياً: بالتقليد الذي تسلمته الكنيسة الجامعة.

(1) St. Vincent of L. (N.P.N.F. vol. XI, ch. XXVII, p. 152).

وهـذا ليس لأن الأسفار في حد ذاتها غير كافية للرد على كل سؤال ، ولكن لأن بمجرد التعرض لشرح الكلمات الإلهية الواردة فيها يحدث أن الإنسان بسبب اقتناعه الـشخـصـي يـتـعرض للوقوع في آراء خاطئة مختلفة ، لذلك أصبح من المحتم أن يكون شـرح الأسـفـار المـقـدسة ملتزماً بحدود الإيمان الواحد العام للكنيسة ، و بالأخص في الأمور المعتبرة أساس التعليم العام.

كذلك فإنه ينبغي أن يعتبر جداً مقدار الموافقة العامة في كل حين مع **العمومية**، **والـقـدم** على أن يـكـون هـذان الإتجـاهان على درجة المساواة!! لئلا نقع في إحدى هـوتين: إما نتمزق ونخرج عن الوحدة الكاملة وندخل في الإنقسام ، وإما نسقط من الديانة الأصلية القديمة وندخل في هرطقة البدع الحديثة.](٢)



(2) Ibid., XXIX, p. 153.

الفصل الرابع عشر

التقليد الرسولي حسب الفكر الإسكندري

□□□

من المواطن الأولى التي احتضنت المسيحية أو بالحري التي احتضنتها المسيحية هي مصر، التي تقبلت المسيحية منذ فجر العصر الرسولي ببشارة مرقس الرسول، وفي سفر الأعمال ذكر لأبللوس المسيحي الإسكندري المنافس لبولس الرسول[١] سنة ٥٢م. و يوسابيوس القيصري يذكر في تاريخه الكنسي[٢] النساك المسيحيين الأوائل أيام مرقس الرسول الذين عاشوا غرب الإسكندرية حول بحيرة مريوط، وإن كان يحاول بعض المؤرخين أن يرجع هذه الجماعة إلى الثيرابيوتا اليهودية إلا أنه مما لا شك فيه[٣] أن جماعة الثيرابيوتا كانت من أوائل الذين تقبلوا المسيحية عند انبثاقها فكانوا نقطة الوصل بين الطقوس اليهودية والعبادة المسيحية وهذا يفسر تأصل الطقوس الهيكلية في مصر منذ القرن الأول.

ومن الأمور المحققة تاريخياً أن كتاب قوانين الرسل المعتبر من أقدم الوثائق المسيحية المعروفة قد صنفه هؤلاء المسيحيون النساك ـــ الذين انحدروا من أصل يهودي ـــ على أساس التقليد الرسولي الذي تُسلِّم لهم بواسطة من بشرهم بالمسيحية.

---

(١) أع١٨: ٢٤.

(٢) يوسابيوس، تاريخ الكنيسة، ٢: ١٧.

(٣) يوسابيوس، المرجع السابق.

وعلى وجه العموم فالمسيحية التي انبثقت في وادي النيل كانت ذات صبغة روحية نسكية عالية، فاكليمندس الإسكندري (١٥٠ــ٢١٥م.) الذي يمثل فجر اللاهوت الإسكندري والمعتبر أول تلميذ لبنتينوس مؤسس مدرسة الإسكندرية والذي خلف أستاذه سنة ١٩٠م(٤) كان ذا إتجاه نسكي واضح في تفكيره وسلوكه ولاهوته. والكتابان الثالث والسابع من مؤلفه المشهور «متفرقات Miscellanius» يعتبران وثائق ذات أهمية كبيرة في التعرف على الصبغة النسكية للاهوت التقليدي الإسكندري منذ فجر نشأته، وفيها ينادي بضرورة التبتل للإكليروس عامة، وهذا الإتجاه النسكي انتشر في الكنيسة بعد ذلك وصار إحدى مميزات القرن الرابع وتبناه بابا روما سيريسيوس Siricius ٣٨٤ــ٣٩٩م وتحمس له أمبروسيوس في ميلان. (٥)

ولكن الإتجاه النسكي في اللاهوت الإسكندري كما مارسه اكليمندس لم يقتصر على الإكليروس بل تعداه إلى الشعب والعامة ليس في أمور التبتل فقط بل وفي الأكل والشرب والتحرر من الألم والخوف من الموت. ومن الوثائق الناطقة بهذه الحقيقة وثيقة جالينوس الطبيب المصري المشهور المعتبرة أنها صادقة وغير متحيزة بسبب صدورها من شخص غير مسيحي.

يقول جالينوس: [إن احتقارهم للموت يسجل أمامنا كل يوم و بالمثل كَبْحهم لشهوة التعايش المزدوج (الزواج) ليس بالنسبة للرجال فقط بل وللنساء أيضاً، فإنهم هم الذين يفرضون على أنفسهم عدم المعيشة المزدوجة كل أيام حياتهم، وهم يعتبرون أن الأشخاص الذين يضبطون أنفسهم ويهذبون طباعهم في أمور الأكل والشرب وتدقيقهم في اتباع البر إنهم قد نالوا درجة ليست أقل من أعظم

(4) Murry Biog.
(5) E. Ch. F. vol. II. p. 35.

الفلاسفة](٦)، كل هذا في القرن الثاني للمسيحية في مصر.

والكتاب السابع في المنوعات لاكليمندس يضع المنهج التأملي النسكي في اللاهوت على أساس الإنتقال من الإيمان إلى المعرفة عن طريق النسك وقمع الشهوات وأعمال المحبة التي تنتهي **بالإتحاد بالله.**

وقد خلف اكليمندس في مدرسة الإسكندرية وبالتالي في كافة التعليم الكنسي والميدان اللاهوتي النسكي، أوريجانس، ومعروف أن أوريجانس أثر بنسكياته وحياته وتصوفه في المنهج الرهباني عن طريق أوغريس والإخوة الطوال. وهكذا تسحب الإتجاه النسكي التأملي على الجو الرهباني ثم على الكنيسة كلها. ومن مصر عَبَر غرباً إلى فرنسا وإيطاليا على يدي كاسيان ثم دير الليرين وبندكت(٧). وعَبَرَ شرقاً على يدي يوسابيوس القيصري ثم باسيليوس الكبير. (٨)

ولكن ما يهمنا من هذا الإتجاه المبكر في فهم الإيمان المسيحي على أساس نسكي هو الصبغة الفكرية التي انصبغ بها اللاهوت الإسكندري في شرحه وتفسيره لقانون الإيمان وبالأخص في النزاع الأريوسي ثم النزاع النسطوري. فالتقليد الرسولي وجد في البيئة الإسكندرية موطناً خصباً لفهم الإيمان على أساس عملي وليس على أساس فكري مجرد أو أساس تأملي نظري... هذا هو تسليم الرسل: «أما غاية الوصية فهي المحبة من قلب طاهر وضمير صالح وإيمان بلا رياء.» (١تى١: ٥)

فاللاهوت في الفكر الإسكندري الذي ورثه أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير وبقية اللاهوتيين كان نابعاً من صميم الحياة المسيحية، وإدراكهم للمسيح لم يكن

(6) Ibid., p. 36.
(7) Ibid.
(8) Ibid. p. 38.

عن طريق محاجاة الفكر أو الجدل العقلي الفلسفي بل من العشرة الصادقة معه والإتحاد القلبي بالإيمان.

وغيرة أثناسيوس الملتهبة من نحو الأرثوذكسية التي أورثته لقبه المشهور «أبو الأرثوذكسية» لم تكن غيرة عقلية جدلية للظهور والمجد الباطل بل غيرة من أجل حقيقة الخلاص الذي أكمله المسيح بالدم الإلهي ومن أجل الفداء العام الذي كان على وشك أن تنطمس معالمه بسبب زعزعة الإيمان بالتجسد الإلهي، ولولا أن أثناسيوس كان يعيش هذا الخلاص و يعيش هذا الفداء و يعيش هذا التجسد في أوج حقيقته ونوره ما استطاع أن يقف مواقفه التاريخية المشهورة ضد أساقفة العالم كله حتى أخضع عتو وتعظم العقل الشرقي والغربي معاً لفكر المسيح!... كما وقف إيليا في القديم وحده ضد كل أنبياء البعل!!

فالألفاظ التي كان يتلاعب بها الأساقفة الأريوسيون والأبوليناريون والنسطوريون والأوطاخيون من جوهر «أوسيا» وطبيعة «فيزيس» وأقنوم «هيبوستاسس» ووجه (مظهر) «بروسوبون» ليصيغوا بها تعبيراً يوافق إيمانهم العقلي بالمسيح وتصورهم العاجز للتجسد، كانت هذه الألفاظ والإصطلاحات عينها عند أثناسيوس وكيرلس مستمدة من شخص المسيح نفسه الذي يحبونه ويحسونه و يعيشون معه ومستمدة من حقيقة الخلاص الذي قبلوه بالتجسد والفداء الذي نالوه بالدم. فكانوا يصيغون من هذه الإصطلاحات عبارات حية وإيماناً ناريّاً ملتهباً(٩).

---

(٩) أثناء احتدام النزاع بين كيرلس ونسطور أسقف القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الذي فيه قلب كيرلس على نسطور الرأي العام حتى في القسطنطينية نفسها، كان الإمبراطور ثاؤذوسيوس الثاني في كل هذا غاضاً الطرف، لأنه كان مشايعاً لنسطور، فأرسل كيرلس الكبير خطاباً مطولاً للإمبراطور تسبب في هياج القصر الإمبراطوري كله وانقلاب الرأي داخل القصر على الإمبراطور نفسه، فكتب الإمبراطور خطاباً شديد اللهجة لكيرلس الكبير يقول له فيه: «ألا يكفيك أنك قلبت الكنيسة كلها على نسطور حتى تقلب عليَّ القصر!!!» وقد تراجع الإمبراطور بعد ذلك عن تشايعه لنسطور مرغماً. Mansi IV p. 1109 cited by R.V. Sellers; Two. Anc. Christol. p. 221.

فجاء إيمانهم استجابة حية للحقيقة الإلهية!! إن ألوهية المسيح ومساواته لله الآب في الجوهر «الأموسيوس» كانت عند أثناسيوس هي مركز الخلاص والفداء والتجسد والإيمان المسيحي كله. لذلك استماتت في الدفاع عنها لأنها كانت تساوي حياته وموته.

إن الإتحاد المطلق بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية لحصول التجسد كانت عند كيرلس تحوي سر اللاهوت وسر التدبير الإلهي لأن بالإتحاد تم التجسد بصورة فائقة عبر عنها كيرلس الكبير نفس التعبير التقليدي الذي تسلمه من أثناسيوس الرسولي: «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد»، واستماتت في التمسك بهذا القول لأنه أبسط تعبير يعبِّر عن بساطة المسيح ووحدته المتكاملة والمنسجمة في معاملاته معنا، لأن فيه ليس معنى الإتحاد فقط بل سر التدبير الإلهي الفائق للعقل الذي يحوي كل قوة المسيح في جعل الإثنين واحداً، وهذا التعبير هو المطابق اللاهوتي لقول يوحنا الرسول: «والكلمة صار جسداً» (يو١: ١٣)، فبإتحاد الطبيعتين تم سر التجسد، لذلك من بعد التجسد لا يقال طبيعتان وإلا تخلخل السر بل «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد». فالتجسد نتيجة للإتحاد. وبالتجسد استُعلن سر الثالوث!!

أما أن يقال عنا ـ نحن الذين تمسكنا بتقليد أثناسيوس وكيرلس وديسقوروس أيضاً الذي تمسك بهذا التقليد نفسه بكل إصرار وعزم في مجمع خلقيدونية ـ أننا أصحاب «**الطبيعة الواحدة**» فهذا افتراء لأن كيرلس الكبير لم يقل أن المسيح طبيعة واحدة وسكت، بل قال: «طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد» (١٠)، و«طبيعة واحدة من طبيعتين» (١١)، و«كان الإتحاد من

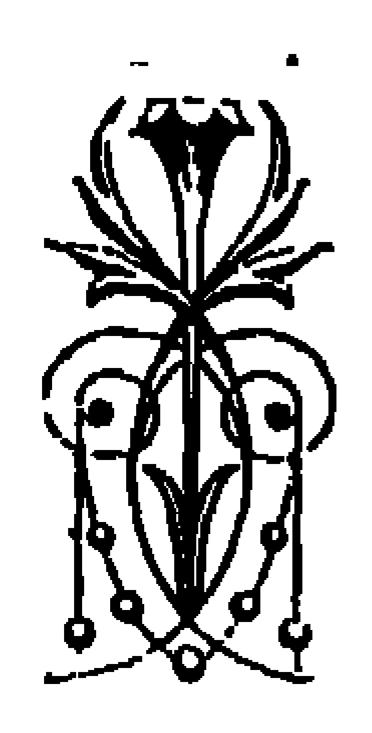
(١٠) وردت في جميع كتاباته.

(١١) الرسالة الأولى لنسطور.

طبيعتين» (١٢)، «على أن الإتحاد لا يلغي اختلاف الطبائع.» (١٣)

وفي خطابه ذي الإثني عشر فصلاً المشهور بالخطاب الثاني لنسطور يوضح كيرلس الكبير الصلة العملية الواقعة بين مناداته بالإتحاد الكامل الذي تم بين الطبيعتين في سر التجسد و بين إيمانه بالإفخارستيا:

[الذبيحة غير الدموية التي تتم في الإفخارستيا التي بها نتقرب إلى المواهب السرائرية التي للنعمة فنتقدس ونصير شركاء في الجسد المقدس والدم الكريم للمسيح مخلصنا جميعاً، ليس أننا نتقبله على أنه مجرد جسد عادي لإنسان ارتبط «بالكلمة» فتقدس بوحدة الكرامة أو لإنسان تقبل سكنى اللاهوت فيه **وإنما جسد حقيقي محيي لله الكلمة الذي لما صار واحداً بجسده جعل جسده محيياً.**](١٤)



(١٢) الرسالة إلى الشرقيين.

(١٣) الخطاب الثاني لنسطور.

(14) Ear. Chr. F. vol. III, p. 352.

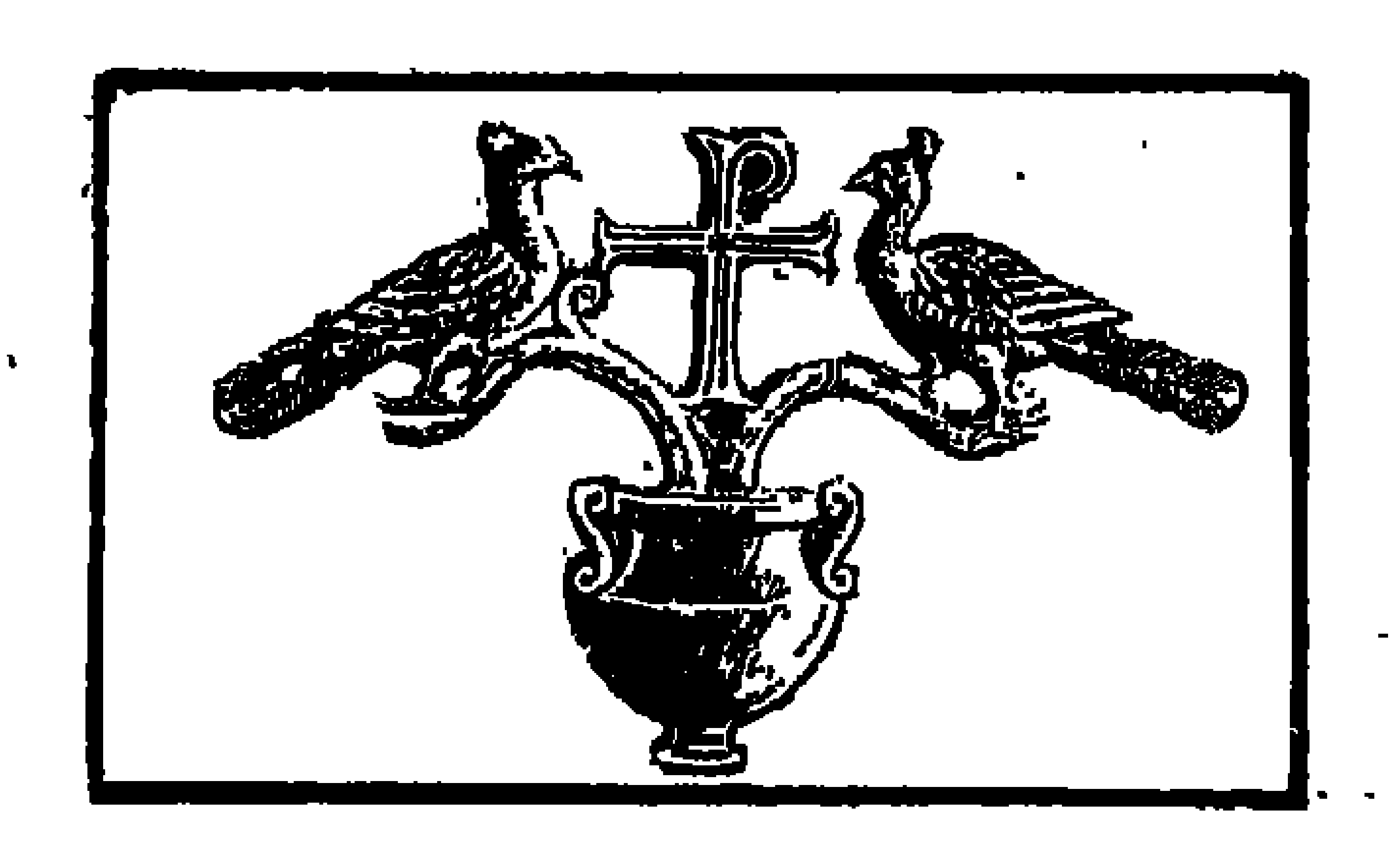
الفصل الخامس عشر

مدخل إلى التقليد السرائري

□□□

لقد عبرنا عبوراً سريعاً على التقليد التعليمي فيما يخص «الكلمة» مسلطين النور على قانون الإيمان الذي يبنى عليه الإنجيل كله بل والكتاب المقدس بعهديه.

والآن نبدأ نهييء ذهن القارىء للدخول في التقليد السرائري أي فيما يخص ممارسة الأسرار المقدسة بحسب التقليد المسلم منذ البدء لكي نعد الذهن لدراسة الأسرار مركزين على سري الإفخارستيا والمعمودية.



مدخل إلى التقليد السرائري

علاقة التقليد التعليمي بالتقليد السرائري:

إن كل قصد الإيمان وغايته هو أن نقبل سر الحياة الأبدية ، فخلاصة الإيمان بالثالوث المقدس وبموت الرب وقيامته إنما يؤدي و ينتهي إلى الحياة الأبدية : «اذهبوا إلى العالم أجمع واكرزوا بالإنجيل للخليقة كلها من آمن واعتمد خلص» (مر١٦ : ١٦)، «اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس .» (مت٢٨ : ١٩)

أما كيف نؤمن بالثالوث المقدس وبموت الرب وقيامته إيماناً صحيحاً حسب الكتب فهذا وجدناه أنه عمل التقليد التعليمي والتفسيري الذي تسلمته الكنيسة من الرسل وزادته نوراً بمقدار ما وهبها الله من النور في المجامع و بالآباء .

وأما كيف نقبل هذه الحياة الأبدية فينا ونحصل على سر الخليقة الجديدة فهذا ما يضطلع به التقليد السرائري العملي المنحدر إلينا بالتسليم من الرب نفسه .

والرب أعطى المعمودية للميلاد الثاني الذي من فوق أي من السماء لخلقة الإنسان خلقة جديدة للحياة الأبدية وذلك بواسطة الماء والروح القدس .

وأعطى الإفخارستيا لإستمرار هذه الحياة وتقديسها والثبوت فيها وذلك بواسطة الجسد والدم .

فالمعمودية والإفخارستيا هما عمل الله فينا نظير إيماننا به .

فالإيمان بالآب والإبن والروح القدس والإعتراف بموت الرب الكفاري عنا وقيامته لتبر يرنا هذا يؤهّلنا لعمل الله.فينا الذي يتم بصورة غير منظورة حيث نقبل منه نعمة الميلاد الجديد والغفران والتطهير والتقديس والتبر ير والثبوت فيه بمعنى

الشركة معه في الحياة الأبدية.

[حيث وُجدت الكنيسة فهناك روح الله وحيث روح الله فهناك الكنيسة وكل عمل النعمة.

والذين لا يشتركون في الروح القدس لا يغتذون للحياة من ثدي أمهم ولا يرتوون من النبع الفائض المنبثق من جسد المسيح.] (١)

إن هذا العمل الذي يعمله الله في الذين يؤمنون به صعب كشفه أو التحدث عنه لأنه غير ملحوظ ولا يتم على مستوى الإنسان بل على مستوى الله لذلك فإدراكه يحتاج إما إلى استعلان خاص أو إلى إيمان مكتوم في القلب ينتظر زمان الإستعلان الكلي الذي يظهر الله فيه فكره و يكشف سرائره في الناس حسب الإنجيل.

فمن ذا الذي يستطيع أن يصور كيف يتم ميلاد الإنسان في المعمودية أو يصف صورته الجديدة؟ أو من ذا الذي يستطيع أن يكشف كيف يتقدس الإنسان بالدم والجسد وكيف تتحد طبيعة الإنسان بطبيعتها و يصور الإنسان وهو متحد بالمسيح؟

أو من الذي يستطيع أن يصور كيف يدخل الروح القدس في هيكل الإنسان عند لحظة نفخة الفم أو وضع اليد على الرأس؟ أو يصور الروح القدس وهو داخل الإنسان؟

لذلك تدعى هذه الأعمال الإلهية التي تجرى داخل الإنسان ولا يستطيع أن يلحظها أو يكشفها بالأسرار الإلهية أو السرائر المقدسة أو أسرار الكنيسة.

والمسيحية بجد ذاتها هي كلها «سر الله أو سر المسيح». «ليس أحد يقدر أن يقول يسوع رب إلا بالروح القدس.» (١ كو ١٢ : ٣)

(1) Iren., Adv. Haer. III 24,1.

وسر المسيحية ينقسم إلى نوعين: الأول يختص بالتقليد الإيماني والثاني بالتقليد السرائري.

الأول:

سر اللاهوت وسر التدبير الإلهي وهما ما أعلنه الله عن نفسه وما صنعه بواسطة أبنه «ليعرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه» (أف ١ : ٩). وهذان يشملان استعلان سر الثالوث المقدس وسر التجسد والفداء. وهذه الأسرار استعلنت للعالم أجمع حتى أن كل من يؤمن بها يخلص من الغضب.

والثاني:

الأسرار الإلهية الموهوبة للكنيسة وهي التي فيها يمنح الله نعمته خاصة للمؤمنين بواسطة الكنيسة لنوال شركة معه في الحياة الأبدية. وهي تشمل الأسرار السبعة ــ التي حددتها الكنيسة مؤخراً ــ مع كافة الأعمال الأخرى التي يمنح فيها الإنسان نعمة من لدن الله بواسطة الكنيسة من عبادة وتسبيح وصلاة، إذ يتم أثناءها حضور الرب سراً حسب وعده «حيثما اجتمع إثنان أو ثلاثة باسمي فهناك أكون في وسطهم» (مت١٨ : ٢٠). وحيث حضور الرب فهناك عطية وثبات ونعمة بلا أدنى شك. «هذا السر عظيم ولكنني أنا أقول من نحو المسيح والكنيسة.» (أف ٥ : ٣٢)

والإيمان بسري اللاهوت والتدبير الإلهي أي بالثالوث والتجسد والفداء كان لا يمكن لأي إنسان أو نبي أو ملاك أن يحصل عليها لولا أن الله كشف ذاته وأعلن تدبيره وسبق وأعطانا نعمه «حسب غنى نعمته التي أجزلها لنا بكل حكمة وفطنة إذ عرفنا بسر مشيئته حسب مسرته التي قصدها في نفسه» (أف ١ : ٧ ــ ٩). لذلك يقول أيضاً بكل تأكيد: «لأنكم بالنعمة مخلَّصون بالإيمان وذلك ليس منكم بل هو عطية الله.» (أف ٢ : ٨)

ولكن الإيمان العقلي بسرّي اللاهوت والتدبير الإلهي أي الثالوث والتجسد والفداء وإن كان يخلّص من الضلالة لكن لا يلد الإنسان ميلاداً جديداً للحياة الأبدية فالمعرفة على العموم تحرر ولكن لا تخلق «تعرفون الحق والحق يحرركم» (يو٨: ٣٢)، لذلك قطع الرب في هذا الأمر بضرورة تتميم الأسرار الكنسية: «الحق الحق أقول لك إن كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله.» (يو٣: ٥)

وهذا أيضاً يشرحه القديس أغسطينوس:

[الإنسان يبتدىء يقبل النعمة منذ اللحظة التي يؤمن فيها بالله، **ولكن تكميل ملء فاعلية النعمة يعتمد على الأعمال التي يقوم بها في الحاضر مع ممارسة الأسرار.** كرنيليوس لم يكن مؤمناً بالله ولكن بسبب صلواته وصدقاته أثبت أنه مستحق أن يُرسَل له ملاك، فأعماله الطيبة كانت ستصير عديمة الأثر لو لم يكن قد آمن، وهو لم يكن مستطيعاً أن يؤمن لو لم يكن قد توبخ سراً. **فالإيمان يوجد عند بعض الناس كنعمة ولكن لا يكفي أن ينال به الإنسان ملكوت السموات مثل كرنيليوس لو لم يتحد بالكنيسة بالإشتراك في الأسرار.**](٢)

واضح إذن أننا بالإيمان نقبل المسيح بالقلب والفكر، وبالأسرار نقبل المسيح بالفعل. فالمسيح يحل في القلب بالإيمان «ليحل المسيح بالإيمان في قلوبكم» (أف٣: ١٧)، ولكنه لا يتحد بنا إلا بالأسرار «من يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيه.» (يو٦: ٥٦)

ولذلك لا يمكن الفصل بين الإيمان والأسرار لأنهما يكملان معاً سر المسيح الواحد **وذلك بقبوله في القلب والإتحاد معه بالروح** «فقال آمن بالرب يسوع

(2) E. Ch. F. vol. I August. to Simplician B.I. p. 386.

المسيح فتخلص أنت وأهل بيتك، وكلماه وجميع من في بيته بكلمة الرب، **واعتمد** في الحال هو والذين له أجمعون.» (أع ١٦: ٣١ـــ٣٣)

لذلك نجد أن المعمودية تسمى في التقليد الرسولي بـ«الإستنارة» أي أننا لو حسبنا المعرفة المتولدة من الإيمان بالمسيح أنها نور فالمعمودية هي اشتراك في هذا النور أي استنارة، فالإيمان ينير لنا (بالقلب و بالفكر) والأسرار توحدنا بهذا النور (سراً و بالروح).

وكذلك نجد أن في سر الإفخارستيا يقول الرب أن كل مرة تأكلون من هذا الخبز (السمائي) وتشربون من هذه الكأس (الخلاص) تبشرون بموتي وتعترفون بقيامتي، أي أن نوال نعمة سر الإفخارستيا ينتهي إلى الكرازة والشهادة العلنية.

وهكذا يرتبط الإيمان بالأسرار، وكل منهما ينير الطريق أمام الآخر و يعمق أصوله.

والرب حينما أسس سر المعمودية أسسه على الإيمان بالثالوث «عمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس» بمعنى أن السر لا يتم إلا على أساس الإيمان الصحيح بالله. كما أنه أسس **سر الإفخارستيا على الإيمان بموته وقيامته «فإنكم كلما أكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت الرب إلى أن يجيء» (١ كو ١١: ٢٦). بمعنى أن السر لا يتم إلا على أساس الإيمان بالتجسد الحقيقي والفداء (الموت)، والتبرير والخلاص (القيامة).**

إذن فقانون الإيمان الرسولي يتحقق هنا في الأسرار تحقيقاً فعلياً كاملاً. وكل ما أؤمن به بالقلب واللسان في ذلك القانون ينبغي أن أحصل عليه بالروح في الأسرار.

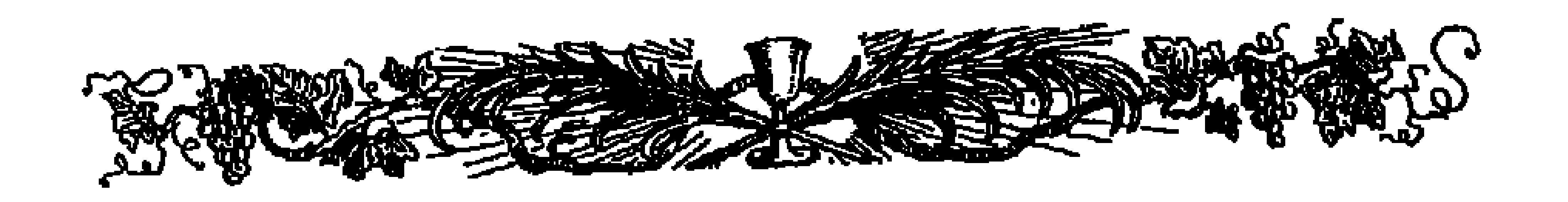
طبيعة الأسرار:

بخصوص طبيعة الأسرار في تسليمها الأول كما يسردها الإنجيل كانت لا تحتمل الفحص العقلي أو النظري كما يحتمل قانون الإيمان، بل كانت تؤخذ قضية مسلمة تحمل حقيقتها و برهانها في أعماقها، مثل المعمودية: فالرب يقرر ضرورتها المطلقة ولكنه لا يفسر قوتها أو عملها، «إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله» (يو٣:٣). فلما ابتدأ نيقوديموس يسأل و يفحص ليستقصي كيفية عمل السر: كيف يمكن الإنسان أن يولد وهو شيخ؟ كان رد المسيح أن الميلاد الذي يتم في المعمودية يتم بعمل الروح ولا تستطيع أن تفحصه فأنت ترى عملاً ظاهرياً ولكن قوته ومصدره ونتيجته لا يمكن أن تدركها.

فلما حاول نيقوديموس مرة أخرى أن يستفسر عن كيفية هذا الأمر العجيب «كيف يمكن أن يكون هذا»؟ كان جواب المسيح أنه ينبغي للإنسان الذي درس في كلمة الله وقرأ الأسفار المقدسة أن يعرف هذا من نفسه أو في نفسه: «أنت معلم إسرائيل ولست تعلم هذا»؟ أي أن الأمر لا يحتاج إلى تعليم ولكن يحتاج إلى بصيرة وإيمان...

إذن فالإيمان بالله والإيمان بكلمته كفيل من ذاته أن يقنع الإنسان بعمل السر، فالذي يؤمن بالآب كخالق والإبن كفادي والروح القدس كمقدس يستطيع أن يؤمن بالخلق الجديد و بالميلاد في المعمودية بعمل الآب والإبن والروح القدس كوعد الرب.

أي أن الأسرار هي عمل الإيمان وفي نفس الوقت هي ثمرته و برهان فاعليته.



انتهى التقليد التعليمي وهو الجزء الأول من التقليد الكنسي وسوف نقدم للقارىء التقليد السرائري وهو الجزء الثاني من التقليد الكنسي مبتدئين بدراسة وشرح الإفخارستيا والقداس.

(وقد صدر الجزء الأول منه)



صدر من

سلسلة دراسات في التقليد الكنسي :

١ ـــ **التقليد:** وأهميته في الإيمان المسيحي

كمدخل لشرح الأسفار وفهم الأسرار.

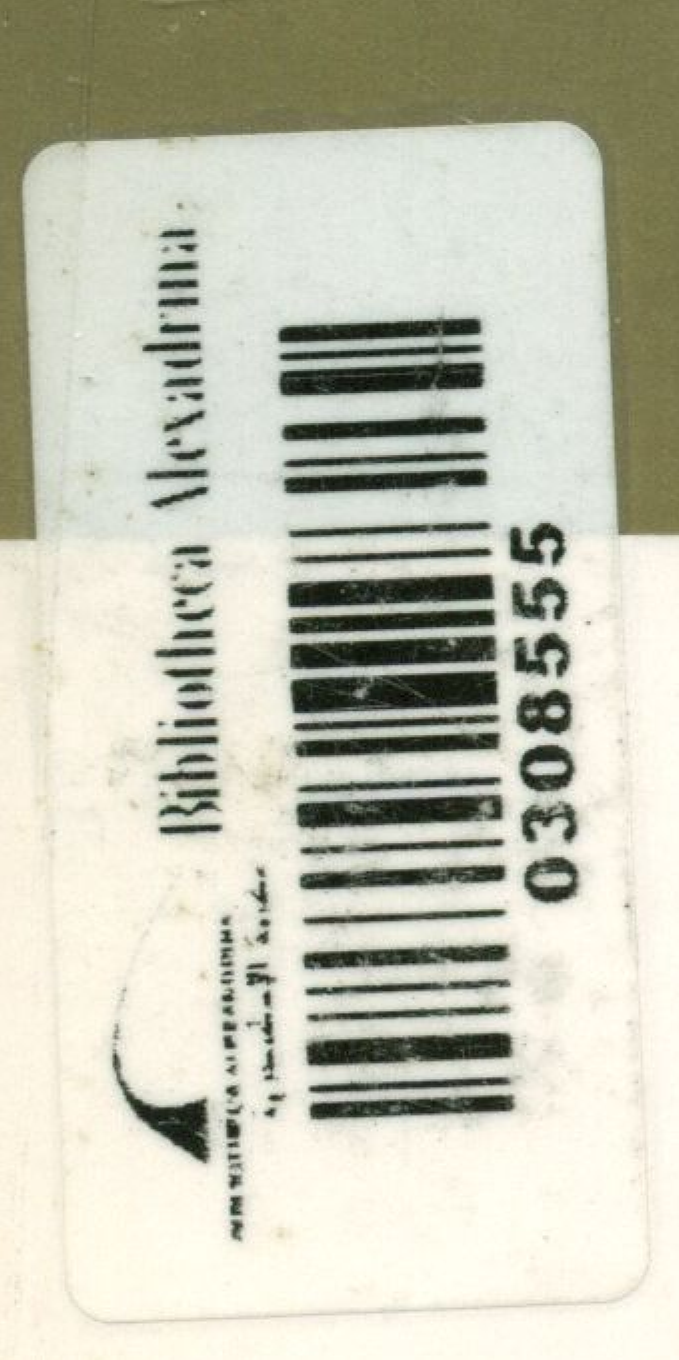
٢ ـــ **العذراء القديسة مريم ثيئوتوكوس.**

٣ ـــ **الصليب المقدس.**

٤ ـــ **التسبحة اليومية ومزامير السواعي.**

٥ ـــ **الإفخارستيا والقداس** (الجزء الأول: الإفخارستيا).

التقليد الأرثوذكسي في الكنيسة القبطية هو من عمل النعمة. وقد أبقاه الله شهادة حية لصورة الكنيسة الأولى ذات الإيمان الرسولي كما فسره مجمع نيقية، دون أن تضيف عليه أو تختزل منه. فتقليدنا استمرار لحياة الكنيسة الأولى في أقدم صوره وتفسيراته، والفضل الأول في ذلك يرجع إلى أن الكنيسة لم تُجِزْ أي ثورات إصلاحية أو نهضوية من صنع أفراد أو جماعات، فاحتفظت بذلك على نظامها وتقليدها الرصين على مدى ألفين من الأعوام. فنموها وتجديدها ظلاً ينبعثان طبيعياً وبدون افتعال من جذورها الماسكة بكل قوة في صخر الدهور، تشرب من الينابيع العميقة غير المنظورة التي لن تنضب.



الطبعة الثالثة ١٩٩٣

الثمن جنيهان ونصف